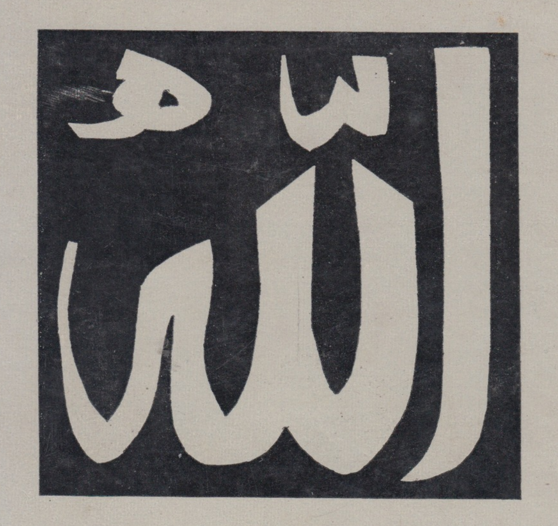
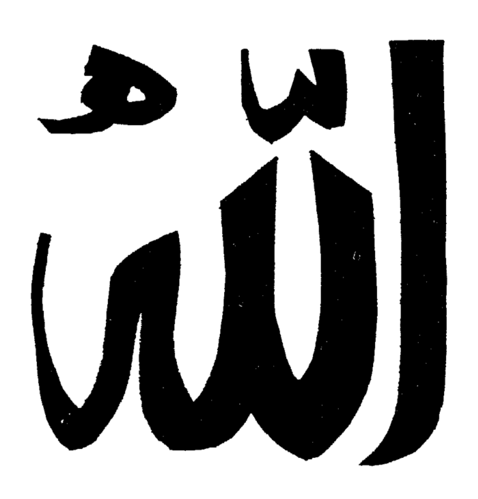


مُصْطفى محمُود

دار العودة . بيروت

الله



مصطفى محمود

دار العودة - بيروت

الطبعة الاولى اذار ــ مارس

١٩٧٢

الله في الإسلام

الشمس تأفل .

والزهور تذبل .

والربيع ينتهي الى خريف .

والصحة تنتهي الى مرض .

والحياة تنتهي الى موت .

والامبراطوريات تزدهر وتندثر .

والقارات يبتلعها المحيط .

والنجوم تنفجر في فضاء الكون وتختفي .

وعالم الظواهر حولنا عالم خادع مخادع يتلـــــون كالاكاذيب ويتحرك الى زوال وفناء .. وكأنه رسوم على الماء او نقش على رمال تذروها الرياح .

والله ليس من هذا العالم .. وانما «متعال» عليه .. لا يمكن لله ان يمرض او يشيخ او يموت ، ولا يصح ان تتصوره وهما باطلا مثل سائر الاشياء .. فهــو «متعال»

على ذلك كله •

العالم باطل

والله حق

العالم زائل

والله دائم

العالم متغير

والله ثابت

العالم سجين في حدود الزمان والمكان •

والله متعال على الزمان والمكان •• لا يتحيز في مكان فليس له حجم ولا مواصفات مكانية •• ولا يمكن ان يقال انه فوق او تحت او عن يمين او شمال •• او داخل او خارج •

وهو لهذا لا يحل في بدن ولا يتحيز في حيز ولا يتجسد في صورة او شكل •

ولانه متعال على الزمان فانه ليس له عمر وليس له بداية او نهاية وليس له ماضي وحاضر ومستقبل •• وانما هو حضور مطلق •• وآن مستمر •• وديمومة ابدية •• ماثلة في الغيب والشهادة على الدوام •

ولا يصح ان نقول عنه انه ينمو او يتطور او يكبر او

يتضخم او يزداد في القوة او يتكامل .. لانه الكامـــل ابــدا .

ولانه منزه عن الزمان والمكان .. فهو لا يتحرك ولا ينتقل .. وانما هو ساكن سكونا مطلقا ..صامد.. وكل ما حوله يضطرب .. وهذا معنى «الصمد» اي الصامد الثابت ثباتا مطلقا .. ولهذا فهو الملجأ والامان من خضم الاضطراب ، تلقي النفوس اليه مراسيها كما ترسو السفن وتلقي بمراسيها الى القاع الساكن وتستمد ثباتها مـــن ثباته .. فهو الصمد الذي يصمد اليه .

نحن في القيد (في الزمان والمكان) .

والله في الاطلاق (الأزل والابد) ليس له مبتـــدأ ولا منتهى ولا حدود .

وهو «اللطيف» منتهى اللطف ليس له جسم ولا مادة ولا كتلة ولا ثقل .

وهذا هو معنى «اللطف» اي الخفاء المطلق .

«اللطيف» هو الذي ليس له جسم او ثقل او كثافة تعوقه .. ومن ثم فهو يتخلل كل شيء في حضور كامل مع كل شيء في كل وقت في خفاء واستسرار : لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار .. وهو معنا اينما كنا قريبا

منا منتهى القرب بحيث لا نراه .. كما لا يرى الواحد منا سواد عينيه فهو اقرب الينا من حبل الوريد (من الدم في اجسادنا) .

وهو «واحد»

هو الذي ينفعك

وهو ذاته الذي يضرك

وهو الذي يضع السم في العقرب

وهو نفسه الذي يضع العطر في الزهرة

هو ذات الفاعل «الواحد» الذي يفعل كل هذه الاشياء .

هو «الواحد»

وهو «الأحد»

والأحد غير الواحد في المعنى .

الواحد نفهم منه وحدة الفاعل رغم تعدد الافعال وتنوعها .. فاعلها دائما واحد .

والأحدية هي صفة هذا الواحد .

فهو احد .

اي لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يمكن ان يكون له بعض او جزء او ضد او ند .. ولا يجوز عليه التعدد او التناقص

او الازدياد .

وهو لا ينحل ولا يتركب ولا ينفرط ولا يتحد ولا يتصل ولا ينفصل .

وهو احد في ذاته بمعنى انه لا ينشق على نفسه ولا يتناقض ولا يتصارع .. وانما تلتقي فيه الاضداد (الجبار الرحيم والمعز المذل والنافع الضار) في وحدة مطلقة لا تضاد فيها .. ولا تناقض .. ولا تصارع .. ومن هنا كان اسمه «السلام» و«الصمد» الساكن سكونا مطلقا لا اضطراب فيه رغم احتوائه على الاضداد لا حرب في داخله رغم احتوائه على النقائض .. فهو «السلام» .

وهو «الحي» .

اي الحي بذاته بدون حاجة الى خالق يمنحه الحياة .. فهو الحي مطلق الحياة دون اعتماد على غيره .. بعكس حياتنا الناقصة التي لا تقوم الا بمدد منه .

وهو القيوم الذي يقيم كل شيء حيا ويمنح الحياة للعدم .

وكل شيء يقوم بالله .

النجوم في افلاكها تمسكها قوانين الله فهي تقوم به، والاشجار ترفع قامتها به وبمدده من النور والشمس

دالري والتربة .

ونحن نقوم كل يوم به وبمدده .

ونحن نرى به ونسمع به .. بالمواهب التي بثها فينا..

والكون كله يدين بقيوميته لله .. فهو قيوم كل شيء .

وهو مقيمنا من الموت يوم القيامة .

وهو قائم بعنايته على كل شيء في الدنيا من الذرة الى الفلك فهو «القيوم» .

وهو «السميع» مطلق السمع بدون اذن وبدون ادوات .. هو السميع بذاته .

وهو «البصير» بدون بصر وبدون عين وبدون اعصاب بصرية .. هو البصير بذاته .

وهو «المتكلم» بدون حروف وبدون كلمات وبدون لسان وبدون شفتين .. هو المتكلم بذاته يلقي الينا بالمعاني فنسمعها على اية لغة يشاء .

وهو «الاول» قبل الزمان وقبل خلق العالم حينما كان ولا شيء معه .

وهو «الاخر» بعد ان ينتهي الزمان وينتهي العالم ويعود كل شيء اليه .. فهو «الباقي» بعد ان يفنى الكل .. فلا شيء قبله ولا شيء بعده .

وهو «الظاهر» بافعاله •
«والباطن» بذاته •
وهو «المنتقم» لنا لا لنفسه •
وهو «الجبار» علــى الجبارين «المـــذل» للمذلين «المتكبر» على المتكبرين ومن كانت هذه صفاته كـــان حقيقا بالكبرياء والعظمة •
لا تجوز الكبرياء الا له •
له الكبرياء في السموات والارض •
يقول الله في حديث قدسي :
«الكبرياء ردائي والعظمة ازاري من نازعني فيهمـــا قصمته » •
فهو «العظيم» بحق اذ اكتملت له اسباب العظمة •
ومع ذلك فهو المتحبب دائما الى احبابه يغدق عليهم من حبه وكرمه وحنانه فهو «الحنان المنان» •
عذابه من عيون رحمته •• فهو «الرحمن» الـــذي يعذب ليوقظ وينبه ويعلم •• وهو «الرحيم» الذي يمنح رحمته خالصة اذا شاء •• ورحمته دائما سابقة علـــى غضبه •• يرسل الرسل والنذر والكتب ويجلو آياته بينات في السموات والارض لكل ناظر •• ثم بعد ذلك يكون

الحساب •• يكون يوم الدين •• يوم الغضب على مـــن
يستحق الغضب •• فهو «الصبور» الذي يمهل •• ويمنح
الفرص •• ويمد الأجل •• وهو «التواب الغفار لكـــل
اواب رجاع اليه» •
وهو «الواسع» •
واسع العلم •
واسع المغفرة •
واسع الرحمة •
هو اللانهاية والاطلاق في كل شيء •
يقول له ملائكته :
«ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا
واتبعوا سبيلك» •
وما ينطقون الا بوحيه وأمره وكلامه •• فهو نبـــع
الرحمة والحنان والملهم بالمغفرة والتوبة •
سبحانه «ذو الجلال والاكرام» •
تعجز الحروف والكلمات وتتقطع العبارات عن بلوغ
مقامه الاسمى حيث هو •
حيث لا حيث •
وعند لا عند •

وحيث تبهت العقول
وتسكت الالسن •
وتجف الاقلام •
وترفع الصحف •

حركة الزمن والتاريخ لا تجري في خط مستقيم .
وانما في دوائر . التاريخ يعيد نفسه في دورات ..
واليوم يعيد نفسه في اوقات متتالية من الليل والنهار
والليل والنهار والفصول تتعاقب من شتاء الى صيف الى
شتاء الى صيف لتعاودنا بنفس الطقس ونفس المحاصيل
ونفس الامراض الموسمية في دورات مكررة من البدء
والاعادة .

والانسان الذي يتقلب هو الاخر من نوم الى يقظة الى
نوم الى يقظة يشعر انه هو الاخر يدور .. يبدأ لينتهي
ثم ينتهي ليبدأ ثم يعود فينتهي ليبدأ .

هذه الحقيقة هي التي فتحت ذهنه على النتيجة
البديهية .. انه سوف يموت ليولد ... وان الموت ليس
الا انسلاخا عن البدن اشبه بما يشاهد حوله من انسلاخ
الافاعي من اهابها والحشرات من جلدها في دورات متتالية
تتجدد بها مرة بعد مرة .

انها طابع الخليقة .

ونفهم الان من القرآن انها صفة الخالق ايضا .

ونقرأ ان من اسمائه الحسنى انه «المبدىء والمعيد» .

والمعنى الاول الذي يرد على الذهن انه خالق الاولى والآخرة وانه سوف يبعثنا بعد الموت ... وان لنا عودة.

والمعنى الثاني المكمل للأول .. ان هـــذا ناموس الخالق في خليقته وان كل شيء في مملكته يجري على سنن ثابتة من البدء والاعادة ويتحرك في دورات .

وكل معنى منهما يؤكد الاخر .. فما نراه حولنا من دورات البدء والاعادة يؤكد لنا ان الموت لن يكون خاتمة وانما نهاية فصل ما يلبث ان يليه فصل اخر وانه كالنوم له ساعة ننفضه فيها وتتيقظ .

وبالمثل الكلام عن البعث نرى له مصداقا كل يوم في بعث الخضرة والازدهار كل ربيع بعد موات الخريف .

هو «المبدىء والمعيد» .

هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه .

والاعادة دائما أهون من الابتداء المطلق .

«هو المحيي والمميت» .

«فالق الحب والنوى» .

الحبة تنفلق لتخرج النبتة الجديدة •

والنواة تنفلق لتنبت منها الشجرة •

ونواة الخلية تنفلق مع كل دورة من دوزات التكاثر لتصبح الخلية الواحدة خليتين •

ونواة الذرة تنفلق لتولد منها ذرات جديدة وتخرج طاقة هائلة •

الانفلاق دائما بداية الدورة وبداية الميلاد •

الفتق دائما يأتي بعد الرتق •

« او لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما » •

(الانبياء ــ ٣٠)

اي كانتا نسيجا واحدا (السديم الغازي) ثم تفتق هذا النسيج الواحد الى أنوية كثيفـــــة نشأت منها الشمس والارض والكواكب بأجوائها •

هذه سنته وناموسه في خلقه •

وهو «المبدىء والمعيد» •

وهو «المقدم والمؤخر» •

هو الذي يؤقت المواعيد لكل شيء •

وهو الذي يؤخر الآجال الى يومها المقسوم •

وهو خالق الزمن باطلاقه •

وهو الذي اقام الاسباب لتكون مؤدية الى النتائج وجعل الاسباب مقدمة على نتائجها •• والنتائج مؤخـرة تلو اسبابها •

وجعل الدواء سببا للشفاء •

ولانه هو مسبب الاسباب كان هو «الشافي المعافي» وليس الدواء ، لانه هو الارادة المطلقة وراء الاسباب ••• ولو كان الشفاء ارادته فسوف يجريه على صاحبه بالدواء او بالجراحة او بأي سبيل •

واذا لم يكن الشفاء في تقديره ••• فلن ينفع طب ولا دواء •• لانه هو الحق والظواهر جميعها وسائله الوهمية•

لكننا جميعا مندوبون الى التماس تلك الاسباب لان هذه سنته التي اجراها على الارض •

جعل الاجتهاد والعزم سببا للنجاح •• فلا مفر لطالب النجاح من ان يلتمسه بالجد والاجتهاد وشحذ العزائم •

ولا يجدي ان نقول ان النجاح مقدور من البدايـــة فلماذا نسهر ونكد •• فهذا فهم خاطــــىء للقدر •• لان ناموس الله هو عين قدره •• وفي الناموس الالهي الذي اجراه علينا ان العزم سبب ومقتضى للنجاح بالضرورة •

وهو «الرقيب» .. «الشهيد» مطلق الشهادة يعلم السر وأخفى .. ويعلم ذات الصدور .. ويرى «خائنة الاعين» .. ولا يغيب عنه شيء لانه السميع مطلق السمع والبصير مطلق البصر والعليم مطلق العلم .

وفي علم الله لا مكان للشك ... ولذا كان من اسمائه انه «المؤمن» لان كل مدركاته يقين وايمان... وهو ايضا مناط الامن والامان .

وهو «الوكيل» لان لا شيء يتم الا باذنه . ولأن الامور كلها موكولة اليه .

وهو «المهيمن» لان لا ارادة فوق ارادته ولا ارادة معه .. ولا راد لقضائه ولا معقب لأمره .

وهو «الصبور» على عباده يرزقهم ويمد لهم في الحياة وهم ينكرونه ويجحدونه .. وهو يؤجل كل شيء لوقته بلا عجلة ويقدم ما هو واجب التقديم ويؤخر ما هو واجب التأخير في حكمة بالغة وصبر كريم .

وهو «الشكور» يجازي الحسنات بعشرة أمثالها مع انه هو الذي الهم عباده بتلك الحسنات وهذا غاية الفضل والتفضل .. سبحانه لا حدود لكرمه ولا نهاية لمحبته لا يستطيع الواحد منا ان يكون شكورا لله لانه لا يستطيع

ان يحصي عليه نعمه ولا ان يحيط بأفعاله •

يقول النبي في دعائه :

«سبحانك لا احصي ثناء عليك •• انت كما اثنيت على نفسك» •• اذ لا يثني على الله على وجه الاحاطة الا الله •• فلا يعرف الله الا الله •• فشكرنا شكر عجز •• اما شكر الله فهو شكر علم واحاطة وخبرة وقدرة •

والله هو «الملك» المطلق على جميع الاكوان المستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود •• بينما الكل في حاجة اليه من الذرة الى المجرة فهو الذي يمسك كل شـــيء بقوانينه ويدبر كل شيء بحكمته •

والانسان ملك صغير ••• جنوده شهوته وغضبـــه وهواه ، ورعيته لسانه وعيناه ويداه اذا ملكها ولم تملكه واطاعته ولم يطعها • نال درجة الملك في عالمه الصغـــير (جسده) فاذا اتسع ملكه استطاع ان يستغني عن الناس كلهم بينما احتاجوا هم اليه ••• وأصبح الملك في العالم الارضي• وتلك رتبة الانبياء •• كما يقول الامام الغزالي•

ولكنه ابدا مفتقر الى الله لا يخطـــو ولا يتنفس ولا يحيا الا بمدد من الله •

يقول الامير للفقير العارف بالله :

ـ سلني حاجتك •

فيقول الفقير :

ـ اسألك ولي عبدان هما سيداك غلبتهما وغلبـــاك وملكتهما وملكاك •

فيسأل الامير :

ـ ومن يكونا ؟

فيقول العارف بالله :

ـ هما الحرص والهوى •

والله هو «القدوس» المنزه المبرأ من كل وصــــف تتصوره بخيالنا او يسبق اليه وهمنا •• وهو ليس فقط منزها عن صفات نقصنا بل هو منزه ايضـــا عن صفات كمالنا لان كل ما يخطر لنا من صفات كمالنا هو نقـــص بالنسبة الى ذاته •• والكلام عن «القدوس» بأنه المبرأ من العيب هو كلام قريب من سوء الادب •• والحق ان نقول انه المبرأ عن جميع ما يخطر لنا من صفات بما فيها صفات كمالنا •

والتقرب الى الله بهذا الاسم يكون بأن تتجرد النفس من جميع حظوظها فلا تسعى الى شهوة ولا تنقاد لغضب ولا تجري وراء مال ولا تذل لمتاع او طعام او ملبس او

ملمس او منظر .. ولو عرضت لها الجنة ونعيمها لانصرفت عنها مشتاقة الى خالقها .. لا يقنعهـــا من الدار الا رب الدار .. وبقدر عظم المطلب تكون عظمة النفس .

ومن كان همه ما يدخل في بطنه كانت قيمته ما يخرج منه كما يقول امامنا الغزالي .

والله هو «الحكم» الذي أحكم كل شيء صنعا وقدر كل شيء تقديرا في الازل وأقام القوانين والاسبـــاب الثابتة المستقرة والنواميس التي تجري الاكوان المادية على سننها .

كما تقوم العمارة في البدء على شكل تصميم ومشروع وصورة ذهنية في عقل المهندس ... كذلك كل ما يجري في الدنيا سبق به العلم في الازل ... وعمارة الكـــون بنيت على مقتضى الارادة والحكمة الالهية .. هو الذي أحكم كل شيء خلقا ثم هدى .

وكل ما يدخل في الوجود يدخل من باب الوجوب .. فهو واجب الحدوث بالقضاء الازلي الذي لا مرد له .. فلا جدوى من الهم وعلى العبد ان يسعى الى رزقه مطمئن النفس هادىء البال .. وليس معنى هذا ان يتكاســـل ويتواكل اعتمادا على ما هو مكتوب .. فالله بين لنا انه

لا يقضي بالنجاح الا بأسبابه .

وفي حديث نبينا عليه الصلاة والسلام :

ـ «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» .

لا نجاح بلا عمل .

هذا عين الدستور الالهي .

والله يقبض الحظوظ او يبسطها حسب استحقاق كل عامل وهذا هو التيسير ، التعسير .

فهو «القابض الباسط» .

الذي يقبض الارواح والحظوظ والقلوب .

ويبسط اسباب التوفيق .

كل ذلك يجري في اطار من الحكمة العالية .

فهو «الحكيم» الذي يحقق افضل الاشياء بأفضل الوسائل .

انا وانت وكل ركاب هذه السفينة الفضائية التـــي اسمها الارض •• نعلم انها تمخر عباب هذا الفضاء منذ ملايين السنين في صحبة كوكبة من الفرسان من ابنـــاء اسرة الشمس •• والشمس بدورها مع مائة الف مليون شمس اخرى تؤلف مدينة سابحة اسمها المجرة •• ومثلها من المجرات مائة الف مليون مجرة تسبح في طول الكون وعرضه على مدى اللانهاية من الرؤية •

نظرة في السماء في منتصف ليل ساج الى هـــذه العمارة الكونية الهائلة سوف تثير الذهول •

الى اين نسير •

وما النهاية •

ومن الذي خلق

وكيف

ولِمَ

العلم يقول لنا ان هذه العمارة الهائلة على سعتها وترامیها مبنية كلها من نسيج واحد وخامة واحدة ومصممة كلها بأسلوب واحد وخطة واحدة ومحكومة بقوانين واحدة .

سوف يقول لنا العقل .. لا بد ان الخالق واحد والمبدع واحد .

فاذا ادرنا البصر عائدين الى الارض وأحوالها ورحنا نتأمل ما فيها من حياة ونبات وحيوان وانسان .. وجدنا نفس الشيء .. نفس القوانين الواحدة والخامة الواحدة والنسيج الواحد والاسلوب الواحد والخطة الواحدة في الجميع .

الذي بنى السماء ... هو هو الذي صنع ورق الشجر .. وهو الذي وضع السم في العقرب .. والعطر في الورد .. والعقل في الانسان .. وهو الذي صنع الجميع من خلايا متشابهة .. كما تبنى البيوت من لبنات واحدة .

ان وحدة القوانين المعمارية تؤكد لنا وحدة الخالق الذي انفرد وحده في بناء كل شيء لم يشرك في العمل يدا غير يده .

هو الله .

الواحد الأحد .

الخالق بحق لا شريك له .

ولا يصح لنا ان نقول .. من خلقه ؟

لأن الخالق بحق لا يمكن ان يكون مخلوقا .

هو الخالق من عدم بكلمة كن فيكون .

وكل المخلوقات كلماته .

وكلماته لا تنفد .

خلقنا في البدء أرواحا في الملكوت .. وكان ذلك في عالم الامر .. في عالم الكلمات .. وقبل النزول الى الأرحام .

ثم اطلقنا وأعطانا براءة الوجود فهو «البارىء» كما يعطي الملك براءة الوسام لحامله فيصبح من حقه ان يحمله .

ثم صوّر لنا قوالبنا المادية في الارحام .. فهو « المصور » .

وتنزلت ارواحنا الى الدنيا بالصور التي ارادها

وتنزلنا من عالم «الامر» عالم الكلمات الالهية .. الى عالم «الخلق» حيث اصبحت كل كلمة صورة .. وحيث

اصبحت ارادة الله (الروح) جسدا يسعى .

وهو «الوهاب» الذي يمنح هباته وعطاياه خالصة بلا غرض سخية بلا حدود .

بينما يهب الانسان هباته لغـرض انتظارا لمصلحة او دفعا لمذمة او التماسا لثناء او اجتلابا لشرف او اكتسابـا لذكر وهو يعبد الله خوفا من ناره او طلبا لجنته او في احسن الاحوال لوجهه الكريم وهو اعظم الحظوظ فـلا يوجد حظ او عوض او مكافأة اعظم من النظر الى وجه الله والقرب منه والحياة في رفقة ملأه الاعلى .

فالانسان في جميع احواله لا يبرأ من الغرض فـلا يمكن ان يكون «وهابا» كما ان الله وهاب .

وهو لا يعطي من عنده لانه لا يملك شيئا .. بل هو يعطي مما استخلفه الله وورثه .. وهو يعطي لحدود .

وهذا هو الفرق بين صفاتنا وصفاته تبارك وتعالى .

فصفاتنا في القيد .

وصفاته في الاطلاق .

هو «الكريم» مطلق الكرم .. يعطي ما لا نهاية من العطايا لما لا نهاية من المخلوقات .

اذا وعد وفى .

واذا اعطى زاد على منتهى الرجاء .
لا يبالي كم اعطى ولمن اعطى .
لا يضيع من لاذ به والتجأ .
فهو الغني عن الوسائل والشفعاء .
اعطانا فوق الكفاية وكلفنا دون الطاقة ، ومنحنا سعادة الابد في مقابل عمل قليل في الزمن .

يقول الامام الغزالي ان من اجتمع له ذلك طبعا لا تكلفا فهو الكريم المطلق الكرم وذلك هو الله تعالى فقط .

وهو «العليم» مطلق العلم .. فعلمه غير مستفاد من الاشياء وغير حادث بالاستنباط والوسائل .. وانما هو علم كلي قديم سابق .

وهو «العلي» علو مرتبة لا علو مكان كما يعلو العقل على الشهوة .. وكما تعلو البصيرة على العقل وكما تعلو الغاية على الوسيلة .. وكما يعلو الحلم على الغضب .. لا رتبة فوق رتبته .

وحينما نقول انه فوق العرش .. (ومعلوم ان العرش هو اكبر ما خلق من الاجسام والاجرام) فانما نعني بهذا انه متعال في رتبته عن كل ما هو جسم .. ولا نعني انه

يجلس على العرش جلوس ملك .. او انه فوق العرش بالمعنى المكاني .. فعلو الله علو معنى وعلو مرتبة وليس علوا مكانيا فهو منزه عن الزمان والمكان .

وهو «الحسيب» الكافي .

من كان له كان حسبه .

اذا احتجت الى الطعام والشراب والدواء والكساء فأنت لا تحتاج الى غير الله بل تحتاج الى الله فهو الذي وفر لك الحصول على كل هذه الاشياء بما خلق من نبات وحيوان وبما اودع من صفات علاجية في الاعشاب والعناصر .

وكذلك حينما يلقم الرضيع ثدي امه .. فانما يتناول غذاءه من كف الرحمن فهو الذي خلق الثدي وأجرى فيه اللبن وأودع في الام المحبة والشفقة وهدى الرضيع الى التقام حلمة الثدي .

وهو القادر القدير المقتدر ليس كمثله شيء في قدرته.

وهذا هو الفرق بين مقام الاطلاق الذي يستوي عليه عرش الربوبية .. ومقام القيد والاغلال الذي نرسف فيه نحن مصفدين بقضبان الزمان والمكان والمادة .

ولهذا لا تصح المقارنة بين صفاتنا وصفاته .

ولا يجوز ان يقوم وجه شبه بين كرمنا وكرمه وحلمنا وحلمه ورحمتنا ورحمته وحبنا وحبه وحياتنا وحياته .

هو الله .

يعجز التصور ان يرسم له صورة .

ولا نملك امامه الا البهت والحيرة .

كما نرسم علامة اللانهاية في الرياضة البحتة دون ان نستطيع ان نقيم لها تصورا ماديا ملموسا .. لان امرها في الاطلاق والتجريد .

وكذلك الذات الالهية هي صرافةالتجريد وحينما نقول انه النور وان اسمه «النور» . فلا نعني بذلك نـــور الشمس او نور الفجر او نور النهار فكل هذا انوار مادية آفلـــة .

ولا نور القلب .

ولا نور البصيرة .

وانما نور الحق المطلق وهو نور من حيث انه ظاهر بنفسه مظهر لغيره .. ومن حيث انه مخرج الموجودات من ظلمة العدم ولا ظلام أظلم من العدم .

وهو «الحق» نستشفه من وراء الحجب المادية ومن وراء اقنعة الجسد والنفس والهوى ومن وراء زيـــف

الظواهر الخادعة .. فهو الحق من حيث انها كلها باطل .

ونستشرف عليه حينما يرتقي احساسنا الى عتبة الروح فتطل بنا الروح على بهائه .. فروحنا منه .. نفخة منه ومع ذلك لا يصح لنا أن نقول ان الله روح .. لان الروح من مخلوقاته .. الروح القدس (جبريل) وروح آدم .. وروح السيد المسيح .. وروح كل منا .. من كلماته .. وأمره .. وخلقه ..

والله «متعال» على كل مخلوقاته .

وأي صلة بين الله ومخلوقاته هي «تنزل» .. «وتقرب» وليست اتحادا (فهو الأحد الصمد الفرد المفرد الذي لا يتحد بشيء) .

وانما تكون العلاقة بيننا وبينه هي البعد او القرب.. والبعد يكون منا نحن وهو لا يكون بعدا في المكان لكنه يكون بعدا بالقلب بالانشغال بسواه والغفلة عنه .

ويكون القرب بالتوجه اليه والحضور معه والانشغال به .

ولكنه معنا دائما حيثما كنا وان غفلنا عنه وانشغلنا بغيره .

وهو في «معية» دائمة بنا وبجميع مخلوقاته لا يحجبه

عنا الا جهلنا .

وهذه «المعية» الدائمة هي مقتضى حبه وعنايته ونحن نسير في نوره ونرى بنوره ونسمع بسمعه .

ليس لنا من وجودنا الا العدم .

وكما لا يصح ان تتصور علاقة الله بنا اتحادا فانه ايضا لا يصح ان تتصورها حلولا .. فالله مبرأ عن الحلول كما هو مبرأ عن الاتحاد.... ومثله مثل النار تعطي صفتها للماء بمجرد القرب منه ودون ان تحل فيه فيصبح الماء ساخنا حارقا مثل النار باقترابه من النار ودونما حلول .

ومثل ذلك ايضا صورة الشمس تلمع على سطح غدير صاف دونما ان تحل فيه .

وانما هي حالات قرب .

ويبقى الله دائما في علاء مطلق وفي تنزيه وتجريد .

فهو «العلي» ... «المتعال» .. له الفردانية الكاملة المبرأة عن الحلول والاحتواء في الزمان والمكان .



وهو «العدل» لا يتصور العدل الا منه لانه احاط بكل شيء علما .. اذا قضى بالضر على انسان فانه يُضَمِّن هذا الضر نفعا واصلاحا وتربية .

وكل شر دنيوي يتضمن الخير في داخله لانه فعل رحماني عادل .

واذا كنا نتسخط ونتبرم ونسب الدهر ونلعن القدر كلما اصابنا بمكروه فنحن في ذلك اشبه بالطفل يسوقه ابوه الى مشرط الجراح ليستأصل له سرطانا قبل ان يستشري فلا يرى الطفل في هذا العمل الا جانب العدوان والمجزرة الدموية التي تجهز لها السكاكين والمشارط ، ولا يرى النفع الباطن في هذا الضرر الظاهر . ويقابل العمل بزوبعة من الصراخ والاحتجاج والسب واللعن ويحكم على الامر بأنه ظلم كله .. والاب طوال الوقت لا يحدوه الا الرحمة .. وهو قد قضى على ابنه بهذا الضر محبة منه . ولو انه تركه اشفاقا عليه لكانت هذه الشفقة ضررا اعظم واهلاكا ظالما للطفل في غير عدل .

وبالمثل لا يستطيع ان يتصور ذلك الرجل الذي فقد بصره او فقد ساقه .. ماذا كان سيفعل ببصره او بساقه لو لم يصبهما ما اصابهما .. ولا يستطيع ان يتنبأ بما

يمكن ان يؤدي اليه فقد حاسة من حواسه الى نبوغ في ناحية اخرى او ظهور لموهبة جديدة كانت خامله وانما هو ينظر كالطفل الى الحادث مبتورا من سياق الزمن ويكتفي بان يحكم عليه حكما مبتورا •

ونحن نعلم الان ان الامراض تخلف في الجسم حصانة وان الميكروبات تنبه الجسم ليفرز موادا مضادة ، وان تداول الحر والبرد والصقيع والظروف القاسية الشاقة على الانسان تربي فيه الجلد والتحمل •

ونحن نعلم ان الزلازل رغم ما تقتل من الوف الارواح فانها تنقذ الكرة الارضية وسكانها من الهلاك وذلك بان تزحزح الجبال فتعيدها الى مواقعها •• والجبال كما نعلم هي الثقالات والاوتاد التي تحفظ القشرة الارضية من الانفجار تحت ضغط باطن الارض المنصهر الملتهب الذي يتمدد باستمرار مؤديا الى ضغوط هائلة تهدد القشرة التي نعيش عليها بالنسف ••• فتأتي البراكين والزلازل بين وقت وآخر لتعيد التوازن الدقيق الى حاله •

وفي عالم الحشرات نرى انه كلما تكاثرت حشرة وتجاوزت معدلاتها في التناسل ظهرت لها حشرة تأكلها

لتعيد التوازن الى اصله .

هذا الميزان الخفي الذي يحكـــم الاحياء والجمادات يكشف عن «العدل الحكم» الذي اراد للكون الذي خلقه ان يكون نظاما لا فوضى .

«الله» هو الاسم المفرد .

وهو الاسم الطلسم الذي يشتمل في داخله على جميع الاسماء والصفات والافعال ..

جامع الكمالات ..

وكامل الاوصاف ..

وهو الاسم العلم على الذات الالهية المسربلة بالغيب.. جميع الاسماء تنسب اليه فيقال انها اسماء الله .. ولا يصح ان نقول انها اسماء الصمد مثلا .

ولا تصح الشهادة الا به فنقول «لا اله الا الله» ولا يجوز ان نقول «لا اله الا الصبور» او «لا اله الا الغفار» .. فهو وحده الاسم الاعظم الجامع ..

ويجوز ان تكون لنا مشاركة في باقي الاسماء .. فيقال عن الواحد منا انه حليم او كريم او رحيم او عظيم..

ولكن لا يجوز لأحد ان يقول انه الله .

ولا حظ لمخلوق في هذا الاسم •• فهو اسم علَم على الخالق وحده وهو اسم قائم بذاته غير مشتق من شيء وغير قابل للتصريف ••

يقول القرآن «هل تعلم له سميا» •

اي هل تعلم من تسمي بالله غير الله •

كل اسم له معنى واحد •

وهذا الاسم الاعظم لا تتناهى معانيه •

وهو اسم تنزه عن الاضداد •• فليس له ضد ولا ند•

فاذا نظرنا في حروفه وجدنا انه يبدأ بالألف •

والألف هو استفتاح حروف المعجم •

وهو آدم الحروف •

والثمانية والعشرون حرفا متولدة من الالف كجميع بني آدم من آدم •• كلها متولدة من تشكيل الالــــف المستقيمة بثنيها لتكون ب او ح او ن او ق الخ •••

والألف في العدد «واحد» •• والواحد هو استفتاح لجميع الاعداد وفيه اشارة لعمود التوحيد •• ومن الواحد بالتجزئة نحصل على كل الارقام •

ويقول لنا الصوفي ابن عطاء الله في شطحاته ان الخلق بدأ بآدم وأنه بالمثل جاء الف القوام قائما معتدلا منتصبا

حسن القد والقامة على الاستقامة مخصوصا بالتشريف والتكريم .

فاذا جئنا للحرف الثاني وجدنا اللام .

وهي اشارة الى لام الملك «لله» .

«لله ما في السموات والارض» .

«قل لمن ما في السموات والارض قل لله» .

وهكذا يظل الاسم حافظا لمعناه بعد حذف الحرف الاول فاذا حذفنا الحرف الثاني تبقى «له» .

«تبارك الذي له ملك السموات والارض» .

وهي ايضا لام ملك ثانية تدلنا على نفس المعنى فاذا حذفناها تبقى الهاء ننطقها «هو» .. حينما ننطق الاسم الكامل «الله» .

«وهو» اشارة الى محض الغيب وهو «ذات الله» .

«وهو» .. اسم من اسماء الله يهتف به الذاكرون فيقولون :

ياهو ياهو .. يا من لا يعلم ما هو الا هو ..

وهكذا يكشف لنا اسم «الله» عن كمال تكوينه .

فهو اسم كامل يدل على المعنى في جملته وفي اجزائه وفي حروفه ومهما سقط منه حرف بعد حرف يظل حافظا

لمعناه في النهاية .

* * *

والذاكر يبدأ بذكر الله بلسانه نطقا ومقالا .

ثم بقلبه اخلاصا واعتقادا .

فاذا اكتملت معرفته لا يعود يرى الا الله فيصبح ذكره عيانا ويقينا ومشاهدة .. فليس في الدنيا سوى الله.

الوجود هو الله وأفعاله ولا غير .

وهو ينظر الى نفسه على انه فعل من أفعال الله وكذلك الى الاخرين .. وبذلك يغيب عن نفسه باعتبارها ذاتا منفصلة ولا يرى فيها الا فعلا من افعال الله .. وكذلك كل ما حوله .. فكل ما يأتيه فانما يأتيه من الله وبالله وكل ما يجري عليه فبأمر الله .

وهذه هي المعرفة عند العارف .

يقول لنا الصوفي العارف ابن عطاء الله السكندري :

المعرفة رؤية لا علم .

وعين لا خبر .

ومشاهدة لا وصف .

وكشف لا حجاب .
واحساس لا مجادلة .
ويقصد بذلك هذا النوع من الرؤية وهو الا ترى فيما نرى الا الله وافعاله وما يجري به قضاؤه فاذا شربت فأنت تشرب من يد الله وليس من الكوب واذا احترقت يدك فالله هو الذي احرقها وليست النار .. فالذي اودع في النار خاصية الاحراق هو الله والذي اودع في المـاء خاصية الارواء هو اللهفهو الذي يسقي وهو الذي يحرق.
«هو الذي يطعمني ويسقين واذا مرضت فهـــو يشفين » .
وهو الذي اذا شاء سلب النار خاصية الاحراقفتكون بردا وسلاما كما جاء في قصة ابراهيم .
وهذا هو التوحيد حينما يصبح ناموس حياة .
وهذه هي «لا اله الا الله» حينما تصبح قلب المؤمن وروحه لا مجرد كلمة على لسانه .
فهو لا يرى بعينه ولكنه يرى بنور الله .
ولا يسمع بأذنه ولكنه يسمع بالله ويفهم بالله ويحيا بالله .
واذا اعطى احدا فليس هو الذي يعطي وانما الله هو

الذي جعله وسيلة خير .. وما هو الا كالخازن الـــذي يتصرف فيما لا يملك ..

وهو يعمل بهمة واخلاص وتفان ولا يشغل نفســـه بالثمرة فاذا باء بالفشل لا يحزن واذا نجح غاية النجاح لا يغتر .. فكلها مقادير تجري وفق ارادة الله .

وهو لا يكسل تواكلا ولا ينام انتظارا للرزق لانه يعلم ان ناموس الله وارادته ان نعمل وان الله اقام الاسباب لنلتمسها وجعل النجاح مرهونا بالهمة والاجتهاد .

وهو لهذا يرى في العمل طاعة وعبادة وامتثالا للامر والناموس الالهي .

وهو لا يسكت على ظلم ولا ينام على باطل .. لانه يعلم ان الله جعل مصارع الظالمين على يد المظلومين .. وانه كتب على نفسه ان يكون ناصرا لمن ينصره وينصـــر قانونه .

فهو في كفاح دائم .. ولكن كفاح مختلف في روحه ودوافعه عن كفاح الرجل الاخر الذي لا يؤمن بشيء غير نفسه ولا يرى لله وجودا .. فهو ساكن النفس رابـط الجأس مطمئن القلب وقد اكتفى من حصته بأن يعمـــل وفوض النتيجة لله وأسقط حظوظه وأغراضه من الحساب

ووطد نفسه على القبول بالغنم او الغرم مؤمنا بان للـــه حكمته التي تغيب عن الافهام وبذلك اسقط عن نفســـه القلق والهم والطمع والغرض واصبح عزما خالصا وحماسا ملتهبا لنصرة الحق بلا خوف ولا تردد ولا مطمع .

بينما الرجل الآخر الذي لا يؤمن الا بنفسه قد حمل معه هموم تلك النفس وقلقها وأطماعها ومخاوفها الـــى المعركة .. وهو في حالة هزيمته لا يبقى له امل يعيش من اجله .. فهو لا يرى في العالم حكمة ولا معنى ولا غاية غير ما يكسب لنفسه فيه فاذا مات امله مات معــه كل شيء .

وهو ابدا في معاناة لانه لا يؤمن بسند الا ذراعه وهي الذراع التي خلقت لتتعب وتمرض وتشيخ وتهرم وتنتهي الى العجز والعطب .

وهو لهذا ينتقل من خوف الى خوف الى قلق الى هم الى يأس .. يسب الدهر .. ويلعن النجوم . ولا يرى في الحياة الا عبثا وسخفا لا جدوى منه ويعيشها لحظة بلحظة ولذة بلذة لا يؤمن فيها بحكمة او غاية او قيمـــة تستحق ان يضحي من اجلها .

وهو يسخر من المؤمن المتدين ويتصور انه حرم من

الملذات التي يستمتع بها .. والحقيقة ان المحروم بحق هو نفسه .

هو الذي حرم نفسه من اثمن ما في الحياة .

من الغاية والمعنى والحكمة .

ومن السند والمعين .

ومن الرحمة .

ومن المدد .

ومن ذات الحق سبحانه الذي به يعيش وبه يموت وبه يبعث .

ولهذا يصف القرآن الايمان بأنه احياء للنفس «او من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس» .

الانعام ـــ ١٢٢

ويصف ابن عطاء الله التوحيد بأنه «استنقاذ للنفس من العذاب الادنى في الحال ومن العذاب الاكبر في عاقبة المآل » .

ويقول الله في حديث قدسي :

«لا اله الا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن عذابي» .

والموحدون هم المقصودون بالآية .

«الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهـم الامن وهم مهتدون» .

الانعام ـ ٨٢

فهم الموعودون بالأمن دنيا وآخرة
الذين اسلموا الوجه والاختيار لله .

* * *

والعارف الذاكر محب لله عاشق لكماله .

وشأن كل محب متعلق الفؤاد بمحبوبه فهو يحاول ان يتخلق بأخلاقه كذلك يحاول العارف ان يتخلق بأخـلاق الله .. فيكون الرحيم الكريم الحليم الغفو الصبـور الشكور الحكيم العليم ما استطاع .

وهذا هو السلوك والطريق والسير على الصراط .

فأسماء الله هي الصراط المستقيم اليه .. الى القرب منه .. وهي دليل السير اليه ..

والقرب من الله قرب صفات لا قرب مكان وذلك بان نقترب بصفاتنا من صفاته .

وهو طريق لا يقدر عليه الا مجاهد يستطيع ان يجاهد

نفسه ويجالدها ليغالب صفاته المذمومة .

وهو الجهاد الذي قال عنه نبينا عليه الصلاة والسلام انه الجهاد الاكبر .. اكبر من جهاد الحرب وجلادها .. لان جهاد الحرب معركة عابرة .. اما هذا الجهاد فمعركة متصلة طوال العمر مع كل نبضة وخلجة نفس .

ومكافأة الفائز في هذا الجهاد ان يرتفع بنفسه الى مستوى الملأ الاعلى والى مقعد الصدق عند مليك مقتدر.. فصفات الله ترفع من يتشبه بها الى ملكوت الله .

* * *

وقد جاء المجتهدون بأسماء لله غير التسعة والتسعين المعروفة منها :

المريد .. المتكلم .. الفعال .. الموجود.. الشيىء.. الذات .. الأزلي .. الابدي .. الجميل .. الكاشف .. الفاصل .. القاضي .. الديان ..

ومنهم من جاء من القرآن بأسماء اخرى مثل :

الكافي .. المبين .. المدبر .. المولى .. الغالب .. الناصر .. النصير .. الاكرم .. الرب .. المليـــك ..

القريب .. العلام .

ومنهم من جاء بأسماء ثنائية مثل :

قابل التوب .. غافر الذنب .. شديد العقاب .. ذي الطول .. ذي المعارج .

ومنهم من قال ان «رمضان» احد اسماء الله .

ومنهم من تحدث عن اسماء استأثر بها الله في علم الغيب عنده .. وقالوا ان منها «الاسم الاعظم» الذي اذا نودي به الله اجاب .

وقالوا أن هذا هو الاسم الذي نقل به آصف ابن برخيا عرش بلقيس الى سليمان في اقل من طرفة عين .

ومنهم من ذكر ان لله الف اسم ..

والكلام كثير .

***

ومعنى الاسماء في مجملها انه «لا موجود بحق الا الله» .. فهو المريد الفعال وليس في الكون من امر او حدث او قدر او تدبير الا هو مظهر لارادته وأثر من آثار فعله وآية من آيات حكمته وتدبيره .

وهي الحي وكل حي لا يحيا الا به ٠
وهو الوحيد الواحد الذي له ان يقول بحق ٠٠ انا٠٠ «انا الذي هو انا» ٠٠

اما كل منا فهو صادر عنه وراجع اليه ولا يحق له ان يقول ٠٠ انا ٠٠٠ فكل منا لا يملك هذه الـ أنا التـــي يدعيها ٠٠ انما هي فضل ومنحة وهبة من الله ٠٠

لا اله الا الله ٠

لا فاعل بحق ولا موجود ولا دائم الا هو ولا ضار نافع سواه ٠٠ ونحن في تقلبنا في الدنيا تحجبنا الغفلة عن هذه الحقيقة ٠٠ فنتصور ان السم هو الذي يقتل وان الترياق هو الذي يحيي ٠٠ وننسى اليد الخفية من وراء الاسباب التي قطرت السم في ناب الثعبان وجعلت مـــن الترياق شفاء ٠

ونحن نركب على السفينة ونتصور انها تنقلنا كما نريد ونهوى ٠٠ وننسى اننا نركب على قوانين جاهزة يسرها لنا الخالق ٠٠ وان الله هو الذي يحملنا على قوانينـــه وأسبابه ٠٠ واننا كشفنا هذه القوانين بالهامه واخترعنـــا وسائلنا التي ننتقل بها بوحيه وتعليمه ٠

وهو القائل لنوح :

«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا» .

وهو الذي «علم الانسان ما لم يعلم» .

وما نسميه بالظروف والبيئة وحركة التاريخ هي جملة الاسباب والقوانين والسنن التي اجراها الخالق .. تماما كما قدر للنجوم مساراتها وافلاكها في الفضاء كذلك قدر للجموع البشرية قوانين حركتها في الزمان .. وما نغير حينما نغير من اشكال المجتمع وعلاقاته الا بالقوى التي أودعها فينا والبصيرة التي أمدنا بها .

«انا مكننا له في الارض وآتيناه من كل شيء سببا فاتبع سببا» .

هكذا يتحدث القرآن عن انتصارات «ذي القرنين» ليقول ان كل نصر احرزه هو تمكين من الله وامداد له بالاسباب التي مهدت لانتصاره .

وهو كلام لا يعني ان يقعد الانسان عن بذل الهمة.. بل نرى ان العزم شرطا لازما لجريان تلك الاسباب .

«ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

فالله جعل العزم سببا واجبا لتحقق اي شيء .

هي قوانين شاملة وضعها الخالق فيما وضع ليجري على سننها الكون .. وما نرى حولنا من أشكال العالم

المادي هي في جملتها مجموع الاسباب التي اقامها الخالق لتكون حجابا على ارادته التي تعمل في الخفاء من وراء الاسباب .

ومن وراء هذا الحجاب ذي الرقع المتعددة الالـوان الـذي اسمه العالـم المادي هناك الذات الالهية في غيب الغيب .

والمؤمن الموحد لا يكتفي بهذا بل يرى ان نفسه .. ان ذاته هي الاخرى حجاب متعدد الرقع .. وان ما يتنازعه من أهواء وشهوات ونزوع الى السلطة وحب للترف وتعلق بالماديات هي حجب واستار كثيفة ومخاضة لزجة تبعـده عن الله عن سر السر المتعال المستخفي وراء الظواهر .. حتى عقله يسجنه في حيثيات المنطق وفـي أسر المقولات والنظريات ... وهو لا يرى فـي التعصب للنظريات الا عبادة لاصنام مجردة جديدة .

وهو لهذا يرى انه لكي يصل الى اللـه لا بد ان يتخطى العالم المادي ثم يتخطى نفسه ثم يتخطى حـدود عقله .. فهو في هجرة دائمة ويقظة واتنباه يخشى ان يغفل لحظة واحدة فيضرب على عينيه حجاب من تلك الحجب يبعده عن محبوبه الوحيد .. خالقه .. الذي جعله قبلة

اسفاره وهدف رحلته •• فهو هارب ابدا من فتنة المرأة ومن فتنة المال ومن فتنة السلطان ومن فتنة نفسه ومن فتنة عقله •• ودعاؤه في كل لحظة :

ـ اللهم خذني اليك مني وارزقني الفناء عني ولا تجعلني مفتونا بنفسي محجوبا بحسي ••

وجماع همه ان يعلو فوق نفسه ويتجاوز ذاته ومنتهى امله ان يضحي بهذه النفس استشهادا في قتال او تفانيا في رسالة تقربا ومحبة لذات الله التي لا دوام لغيرها •

ودليله في التيه هي كلمة «لا اله الا الله» ينفي بهـا الفعل عن كل فاعل •• فلا فاعل الا الله •

ثم ينفي الفعل عن نفسه •• فهو اول من يتبرأ مـن انتصاره اذا انتصر •• فلا يقول •• انتصرت •• بـل يقول •• نصرني الله •

وشعاره كل صباح :

اللهم بك اصبحت وبك امسيت •

اللهم بك انتشرت •

اللهم بك أصول وبك أجول ولا فخر لي •

وهي كلمات امام الموحدين وخير الوارثين لكلمة «لا

اله الا الله» محمد عليه الصلاة والسلام .

* * *

وتخطي حدود العقل عند الصوفي المسلم ليس معناه اهدار العقل وانما معناه الاستفادة من العقل الى اخر مدى قدراته والاستماع الى صوت العقل حتى يقول كل ما عنده حتى يبلغ حافة المحال وحينئذ يستلهم الصوفي بصيرته ووجدانه ليكمل الطريق .. فلا تناقض بين العقل والبصيرة كما انه لا تناقض بين الشريعة والحقيقة .. وانما شأن العقل كمصباح يلقي بنوره الى مدى معين ثم تبدأ منطقة من الظلام لا دليل فيها الا نور البصيرة وهدي القلب .

كذلك تخطي الدنيا عند المسلم ليس معناه طلب الفقر وافتراش الرصيف ولبس الخرق .. وانما تخطي الدنيا هي الا تضع نفسك في خدمة اموالك وانما تجعل اموالك في خدمتك وفي خدمة الاخرين .. وهي ان تملك ارضك وتسخرها للخير العام لا ان تملكك ارضك وتسخرك في تكثيرها .. وهي ان تملك زمام شهوتك وتخضعها لا ان

تكون عبدها وخادمها .. وبذلك تتخطى الاغراء فتجعله خلفك وتحت امرتك وفي قبضتك .. وتكون سيد الدنيا لا عبدها .

اما الصوفية التي تنادي باهدار العقل وتمجد الفقر والشحاذة ولبس الخرق على انها الطريق الى الله فهـــي انحراف بالدين وبالطريق .

والدين يمجد النظافة ويدعو الى العمل ونبينا يقول عن الفقر .. لو كان الفقر رجلا لقتلته .

والمال في القرآن مرادف للخير والنعمـــة .. حينما يوظف في مكانه للنفع العام بالاضافة الى انتفاع صاحبه.. وهو نقمة حينما يكتنز بلا وظيفة سوى الشح والبخل .

والمسلم لا يرفض الدنيا .. وانما يجعل منها مطية الى الاخرة ومزرعة للاعمال النافعة تلحق به بعد موته .

ومفهوم الزهد عند المسلم هو رفـض الذل للمال لا رفض المال أجرا كريما على عمل او جزاء عدلا على جهد..

الزهد هو الضن بالحياة ان تضاع في اجتلاب الترف الفارغ .

والزاهد يرضى بالكفاف ليكرس كل وقته لبلـــوغ اشرف المعارف .. معرفة الله ..

وكل همه وكل فكره وكل شاغله ان يعرفه .. هو .
والزاهد الموحد لا يقــول .. انا .. ولا يقول ..
انت .. ولا يقول .. هم .. ولا يقول .. نحن .
بل يقول .. هو .
لا يرى الا هو .
ولا يقصد ولا هو .
لا اله الا هو .
لا يخشى الا هو ولا يتقي الا هو .. ولا يرى فعلا
الا يرده اليه هو .. ولا يرى ظاهرا ولا باطنا الا هو .
فاذا اكل فهو يأكل من يده هو .
واذا شرب فهو يشرب من كفه هو .
واذا تلقى الرزق فمنه هو واذا تلقى الحرمان فبتقديره
هــو .
واذا قضي عليه بالشقاء فبقضائه هو .. «قل كل من
عند الله» .
فاذا صبر فهو يصبر بالله على الله .
واذا هرب فانما يهرب من الله الى الله .
واذا استنجد فانما يستنجد بالله على قضاء الله .
واذا استعاذ فانما يستعيذ بالله من الله .. يستعيذ

به من بلائه ••• وما الشيطان في النهاية الا ابتلاء اللـه لعباده •• وما الكون الا مظاهر اسماء الله وتجليات صفاته وافعاله •

فهو لا يرى في اي شيء الا الله وفعل الله •• وهذا مطلق التوحيد •

وهذا غاية ما تقوله الاسماء لقلب المسلم •

ان تقوده الى مطلق التوحيد •

الله في العبادات منذ فجر التاريخ

منذ فجر التاريخ وقبل ان يعرف الانسان كيف يطهو طعامه وكيف يبني لنفسه بيتا أحس انه لا بد ان يعبد شيئا ولا بد له ان يبني لهذا المعبود بيتا .

كانت العبادة ضرورة اولى مثل ضرورة الحصول على الطعام والحصول على المأوى .

ادرك الانسان البدائي بوجدانه ان روحه في حاجة الى عقيدة تأوي اليها .

كانت روحه ترتجف جوعا الى ايمان مثل جسده الذي يرتجف جوعا الى اللقمة والامان .

وكما انه لم يستطع ان يعرف ما تخفيه الارض حوله من اسرار وطاقات كالكهرباء والبخار من اول خطوة كذلك لم يستطع ان يعرف حقيقة ذلك الاله المعبود من اول وهلة وانما اكتشفه عبر رحلة طويلة من التجربة والخطأ تماما كما حدث في اكتشافه مكنونات الطبيعة .

فكما ظن في البداية ان الشمس تدور وان الارض

ثابتة .. وكما ظن ان البرق عفريت .. كذلك ظن ان اباه الميت الذي يظهر له في الحلم هو الله .. فعبَده وذبح له القرابين واتخذ من قبره محرابا ومزارا .

وتطورت عبادة الاسلاف لتصبح عبادة ثابتة .

واصبح لكل قبيلة جد قديم تجعل منه الهها ورمزها المعبود .

ثم بدأ الانسان البدائي يتصور ان روح هذا الجد يمكن ان تحل في حيوان او شجرة .. فانتقل الى عبادة الحيوانات والاشجار .. واصبح لكل قبيلة حيوانهـــا الخاص الذي تعبده (الطوطم) .. وهو مرة طائر ومـــرة ثعلب ومرة اسد ومرة عجل ابيس ومرة بقرة ومرة شجرة تين عتيقة .

وكانت هذه النقلة الى اله متجسد يلمس باليد اسهل على عقل البدائي من عبادة روح مجردة بلا شكل وبـــلا جسم .

والذين احتفظوا بعبادة الاسلاف والاجداد صنعـــوا لهؤلاء الاجداد تماثيل وأصناما ترمز اليهم مثل الـــلات والعزي وهبل حتى تكون لمعبوداتهم أجسام تلمس ومواقع تزار .

والبعض اتجه بعبادته الى حيث يتصور مواقع القوة في الطبيعة فعبد الرياح والزوابع والرعد والبحر والكواكب والنجوم والنار .

وهكذا تعددت الارباب بقدر تعدد حاجات الانسان الهمجي ومخاوفه .. فهو يعبد ربا للامطار وربا للحرب وربا للتناسل وربا للخصب وربا للبحر وربا للرياح .

ثم تلخصت هذه الكثرة من الارباب في الهين اثنين.. اله للخير واله للشر .. مثل فشنو وسيفا عند الهنود ... وهرمز وأهرمن عند الفرس .

ثم ظهرت فكرة الاله الواحد ممثلة في الشمس اكبر ما ترى العين في السماء .. الاله «رع» عند الفراعنة .

وفي اليونان «زيوس» كبير آلهة الاولمب الذي جعل من باقي الآلهة أربابا صغارا يعملون في خدمته ويدينون له بالولاء والطاعة .

وكانت اول خطوة نحو توحيد حقيقي لرب مجرد تمام التجريد ، هي الخطوة التي حققها أخناتون نبي الفراعنة بحق .

وقد ورث أخناتون عبادة الشمس عن اجداده وما لبث ان ثار على تلك العبادة الشمسية مقررا ان الشمس ما هي

الا مخلوقة هي الاخرى وان الخالق الجدير بالعبادة هو القوة التي ابدعتها •• وجعل من قرص الشمس مجرد رمز لتلك القوة الواحدة المستترة •• آتون •• الواحـــد القادر على كل شيء •

ويقول هيرودوت ان المصريين كانوا اول الموحدين في العالم وان بقية العالم اخذ الدين عنهم •• فأخذت الهند شعائرها •• واليونان عقائدها من مصر •

ونحن نرى بداية هذا التوحيـــد في عصر أمنحوتب الثالث في تلك الترنيمة المحفورة على لوحة بالمتحـــف البريطاني ••• وهي في صورة ابتهال ومناجاة للاله :

ايها الصانع الذي صورت نفسك بنفســك وصنعت اعضاءك بيديك •

ايها الخالق الذي لم يخلقك احد •

الوحيد المنقطع القرين في صفاتك •

والراعي ذو القوة والبأس •

والصانع الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر •

ويصل هذا التوحيد الى ذروة في النقاء والتجريد على يد أخناتون •• فنقرأ في أنشودته الخالدة لأتون هـــذه السطور الملهمة :

يا آتون الحي يا بدء الحياة .
انك بعيد متعال .
ولكنك تشرق على وجوه الناس .
انك تمنح الحياة للجنين في بطن امه .
وتعنى به طفلا .
وتسكن روعه فلا يبكي .
وتفتح فمه وتعلمه الكلام .
وتدبر له ما يحتاج اليه في حياته .
وتعلم الفرخ كيف يثقب بيضته ويخرج .
وما اكثر مخلوقاتك .
يا واحد يا أحد ولا شبيه لك .
لقد خلقت الارض حسبما تهوى .
خلقتها وحدك ولا شريك لك .
وخلقت ما عليها من انسان وحيوان .
ودبرت لكل مخلوق حاجاته .
وقدرت له ايامه المعدودة .
وجعلت الناس أمما وقبائل ولغات متعددة .
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك .
والصيف ليذوقوا حرارتك .

وصورتهم في بطون أمهاتهم بالصور التي تشاء .
وأنزلت لهم الماء من السماء .
ليجري امواجا تتدافع وتروي حقولهم .
ما اعظم تدبيرك يا سيد الابدية .
انك في قلبي .
وليس هناك من يعرفك .
غير ابنك الذي ولد من صلبك .
ملك مصر العليا والسفلى .
الذي يحيا في الحق .
سيد الارضين أخناتون .

وقد كانوا يعلمون اطفالهم في مصر ان الانسان خلق من طين وان الاله هو الذي سوّاه ... كما نقرأ انهم كانوا يحرّمون لحم الخنزير .

وفي كتاب الوصايا نعثر على تعاليم اخلاقية رفيعة نقتبس منها هذه السطور :

● احذر من الاقتراب من النساء في اي مكان تدخله، فقد انحرف الف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك .. انها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها .

● لقد سمعت بانك تجري وراء ملذاتك وتذهب من

شارع الى شارع تفوح رائحة الخمر من فمك .. ان الخمر تنفر الناس منك وتودي بك الى الهلاك وتجعلك كدفة مكسورة في سفينة لا تفيد في التوجيـــه الى يمين او يسار .

● لا يداخلك الغرور بسبب علمك ولا تختال وتنفخ أوداجك لانك عالم ولا تحتقر الناس .. فقدْ تنفعك مشورة من رجل جاهل .. وما من احد قد بلغ الغاية من العلـم بحيث يستغني عن غيره .

● هدىء من روع الباكي ولا تظلم الارملة ولا تحرم انسانا من ثروة ابيه .

● لا تقتل رجلا اذا كنت تعرف جميل مزاياه .

● لا تقل «ليست لي خطيئة» وتشغل نفسك بالتفكير في خطايا الناس .. فالله وحده هو المختص بالحكم في خطايا الناس وهو الذي ختم على أقدارهم باصبعه .

● لا ترقد خائفا مما يأتي به الغد فالله يحقق دائما ما يريد .

● لا تتخذ الرجل سريع الغضب لك صاحبا .

● ضاعف الخبز الذي تعطيه لأمــك واحملها كما حملتك .

لقد حملتك تسعة شهور في بطنها وظلت مغلولة بك وظل ثديها في فمك مدى ثلاث سنوات •• وبالرغم من ان قاذوراتك شيء تتقزز منه النفس فان قلبها لم يتقزز ولم تقل •• ماذا افعل بتلك القاذورات •

● لا تميز بين شخص ذي حيثية وشخص فقير بل عامل كل انسان بحسب عمل يديه •

● اذا جلست على الاكل مع اشخاص كثيرين فلا تقبل كثيرا على الطعام حتى ولو كنت تشتهيه فانه من المخجل ان يكون الانسان شرها •

● ان كأسا واحدة من الماء تروي الظمأ ولا فائدة من الافراط في الشراب فلن يقوي هذا قلبك •

كان هذا حال مصر •• ذروة في التوحيد والتجريد•• وكمال في تصور الالوهية • وسمو في المنهج الاخلاقي والسلوك الفردي والاجتماعي بينما العالم حولها غارق في عبادة الاسلاف والاجداد والطواطم والاصنام والارباب الثنائية •



ثم ظهر زرادشت في فارس (٦٦٠ سنة قبل الميلاد) ليجد الديانة الفارسية موزعة بين عبـادة هرمز اله الخير وأهرمن الـه الشر فادخل التوحيـد لاول مرة في الفكر الديني وقصر العبادة على رب واحد . ونزل باله الشر الى مرتبة المخلوق الضعيف الذي ينازع الله سلطانه دون ان تكون له غلبة او شأن .

والله عند زرادشت موصوف بأكمل الصفات .. فهو الكريم الشافي من الامراض المنقذ مـن البلايا والكروب الخالق الجواد بالنعم والخيرات .

وهو قد خلق الدنيا على ست مراحل .. السماء ثـم الماء ثم الارض ثم النبات ثم الحيوان ثم الانسان .

والموتى يبعثون ويحاسبون .. وتوزن اعمـالهم .. الاخيار يرفعون الى السماء والاشرار يقذفون الى الهاوية.. ومن تتعادل حسناتهم وسيئاتهم لا يعذبون ولا ينعمـون وانما يقضون حياتهم في انتظار قيام الساعة حينما يؤخذ الكل ويقذفون الى النار المقدسة ليطهروا ثم يرفعوا جميعا الى اعتاب الاله الرحيم الغفار .

والنار تقدس عند زرادشت باعتبارها اطهر المخلوقات لا باعتبارها الها يعبد .

والروح تخلق لكل انسان قبل ان يخلق جسده .

وقد كان زرادشت هو نبي الفرس بحق كما كـــان اخناتون هو نبي الفراعنة وكان محطم الاصنام والاوثـان بالنسبة للديانة الفارسية ورافع راية التوحيد بين ربوعها.

وبعد مائة سنة من وفاة زرادشت يظهر بوذا في الهند ليجد الهند موزعة بين عبـادة اله الخير فشنو واله الشر سيفا هذا عدا اسره من الارباب الصغار يتداولون الحكم.. فيرفض فكرة تعدد الارباب كما يرفض فكرة الرب الواحد الممثل في ذات الهية .. ويقول « بالمطلق » او « الكل » الذي لا يبعث من موت ولا يحاسب ولا يعاقب.. وانما تتم المخلوقات دورتها متناسخة من صورة الى صورة حتى تبلغ ذروة تطورها في الانسان الكامل « البوذا » ثم بعد ذلك تفنى في « المطلق » في « الكل » وهذا الفناء فـــي المطلق تسميه البوذيـــة « بالنيرفانا » وتصفه بانـــه ذروة السعادة لانه التحرر من كل القوالب والاشكال والخروج من حياة القيد الى حياة الاطلاق .. واذا اكتمل الانسان بهذا المعنى واصبح « بوذا » فانه لا يعـــود بعد موته الى الارض او السماء في اي صورة او جسد ولا يتناسخ في اي شكل من اشكال المخلوقات السفلية او العلوية وانما

يتخلص من لعنة التناسخ الى الابد .

وبلوغ هذه الرتبة من الكمال في نظر بوذا لا يكون الا بالتخلص من اسر الشهوات والرغبات ومن اهواء النفس ومطالبها وذلك باخضاعها لناموس العقل والحكمة والاعتدال .

وكما انكرت البوذية الذات الالهية كذلك وقعت في التناقض بين قولها بالتناسخ وبين ما تدعيه من انكار ذات الانسان وروحه .. ولم تستطع ان تفسر كيف يتناسخ الانسان في عدة شخوص وصور ويعود الى الميلاد مرات ومرات ..

وما الذي يبقى منه كل مرة ليتناسخ به اذا لم تكن له ذات او روح .

ومن الذي يقضي عليه بلعنة التناسخ والعودة الى الميلاد اذا لم تكن ذاتا الهية تحاسب وتعاقب .

ويقول البوذيون انهم استبدلوا فكرة الذات الالهية.. بفكرة القانون « الكارما » . فالانسان يولد من جديد بحكم قانون صارم هو التكفير عن ذنوبه (فكل ذنب يترك اثرا وكل اثر يدعو الى كفارة) ولم يقل لنا البوذا من الذي وضع هذا القانون الصارم والزم به المخلوقات

ان لم يكن خالقا له ذات الهية •

وكان واضحا ان بوذا في دياتـه يريـد ان يتجنب الخوض في مسائل الغيب وما وراء الطبيعـة ويريـد ان يبتكر ديانـة بدون « ميتافيزيقا » فاستبدل فكرة الذات الالهية بفكرة « الكل المطلق » الذي تفنى فيه الاجزاء • ولم يقل لنا كيف يتوحد هذا الكل المطلق بدون ذات تضم شتاته •

ويدافع المدافعون عن انكار بوذا للذات الالهيـة بان فكرة الذات الالهية لا تصدر الا عن انسان يتصور ان الله ذات مثله •• والله منزه عن هذا التشبيه •

وينسى هؤلاء المدافعون ان « المطلق » الذي لا يدري بنفسه والذي لا يعي وجوده هو اقل كمالا واحط رتبة من الذات المطلقة التي تعي وجودها •

وان الوجود الذي لا يشعر بانـه موجود اقل وادنى في المرتبـة الوجودية من الوجـود الذي يشعر بكيانـه ووجوده •

ومثل هذا الاله المغمى عليه الذي يسمونه « المطلق » لا يصلح باي حال لتفسير ما يحدث في الكون مـن نظام وانضباط وحكمة •

« والكل المطلق » الذي تصوره بوذا هو مجرد معنى خواء من كل الصفات .

ولم يتقدم بوذا بالهامه الديني خطوة على اخناتون او زرادشت وانما تأخر عنهما بكثير .

ولا نعرف زمنا محددا لظهور النبي ابراهيم ولم يحفظ لنا التاريخ شيئا من صحف ابراهيم التي ذكرها القرآن .

وما بقي لنا من تعاليمه انه كان امام الموحدين بين العبرانيين وانه نبذ عبادة الشمس والقمر ونبذ الاصنام وحطمها ودعا الى اله واحد هو خالق الشمس والقمر وخالق كل شيء والمنفرد بالفعل والتقدير الذي يبعث بعد موت ويعاقب على الخطايا ويثيب على الحسنات .

« الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

(الشعراء)

ولكن العبرانيين انتكس حالهم الى وثنية بدائية بعد موت ابراهيم وجاء موسى على بني اسرائيل ليجدهم عاكفين على الاصنام والطواطم وعبادة الحيوان والاشجار كغيرهم من الامم الهمجية فدعاهم الى عبادة الاله الواحد

الذي سماه « يهوا » •

ولا تذكر لنا المخطوطات الاسرائيلية القديمة التي تروي عن هذه الحقبة شيئا عن صفات هذا الاله الواحد •

ولا تذكر شيئا عن البعث والآخرة والحساب والعقاب•

وكان الاسرائيليون يتصورون « يهوا » في صورة بشرية يأكل ويشرب ويفتك باعدائه •• وكانوا يتصورون الجنة والنار نعيما وعذابا دنيويا وجزاء فوريا ينالونه على اعمالهم قبل الموت •

ولا يأتي ذكر البعث والآخرة والجنة والنار الا في آيات متأخرة من التوراة يتأخر تاريخها الى مائتي سنة قبل ميلاد المسيح •

ولا نقرأ عن الاله المنزه المجرد عن التشبيه والصفات الا على لسان انبياء متأخرين مثل اشعيا •

ولم تترسخ تلك الوحدانية الا بعد تبشير عشرات الانبياء الذين لقوا حتفهم ذبحا وتقتيلا واضطهادا من بعد موسى •• ولا نجد امة حفلت بهذا العدد من الانبياء •• ضاعت دعواتهم صرخة في واد •• وذبحوا وصلبوا وشردوا تشريدا •• كأمة اليهود •

ويأتي المسيح في وقته ليرى اقواما يعيشون في غلظة

حسية ماديــة فيركز دعوته علــى الحب والعفو والصفح والزهد في الدنيا .

احب الرب الهك من كل قلبك ومن كــل نفسك ومن كل فكرك .

احب قريبك كنفسك .

احبوا اعداءكم .. باركوا لاعنيكم .. صلوا لاجــل الذين يسيئون اليكم .. لكي تكونوا اشبه بأبيكم الذي في السموات فانه يشرق بشمسه على الاشرار والصالحين ويفيض برزقه على الابرار والظالمين .

طوبى للرحماء ..

طوبى للاتقياء ..

طوبى للودعاء ..

طوبى للحزانى ..

طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون .

قد سمعتم انه قيل للقدماء لا تزن .. اما انا فأقــول لكم ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بهــا في قلبه .

وسمعتم انه قيــل عين بعين وسن بسن .. اما انــا فأقول لكم لا تقاومــوا الشر بل من لطمك علــى خدك

الايمن فأعطه الايسر ايضا ٠

متى قدمت صدقة فلتقدمها في الخفاء فلا تعرف شمالك ما فعلت يمينك ٠

لا يقدر احد ان يخدم سيدين ٠٠ كذلك لا يقدر احد ان يكون في خدمة الله وفي خدمة المال معا ٠

لا تهتموا بما تأكلون ولا بما تشربون ولا بما تلبسون٠

انظروا الى طيور السماء ٠٠ انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في مخازن ٠٠ وابوكم السماوي يطعمها ٠٠ ألستم انتم اجدر منها ٠

تأملوا زهور الحقل كيف يلبسها الله اجمل الثياب دون ان تتعب او تغزل ٠٠ واذا كان الله يفعل هذا بعشب الحقل الذي ينمو اليوم ويطرح غدا الى التنور ٠٠ فما اسهل عليه ان يلبسكم انتم يا قليلي الايمان ٠

ليس كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل من يحقق ارادة الاب الذي في السموات ٠

لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا ولا ثوبين ولا حذائين افعلوا الخير بلا اجر ٠

مجانا اخذتم من ربكم ٠٠ مجانا اعطوا ٠

اني اريد رحمة لا ذبيحة ٠

الحق اقول لكم ان مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من دخول غني الى ملكوت الله .

ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان بل ما يخرج من الفم هو الذي ينجس .

من اراد ان يخلص نفسه اهلكها ومن اهلك نفسه من اجلي وجدها .. لانه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه.. واي فداء سوف يعوضه عن خسران نفسه.

من كان عنده من الايمان قدر حبة خردل وقال للجبل انتقل من مكانك لانتقل من مكانه .

بهذه الكلمات الصافية المحلقة يخاطب المسيح عليه صلوات الله وسلامه مجتمعا من المرابين والسفاحين والقتلة قست قلوبهم وغلظت مشاعرهم واشتغل احبارهم بالربا ونصبوا موائدهم يبيعون ويشترون في قلب الهيكل.

ويقلب المسيح تلك الموائد ويهتف بهم :

ان بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة لصوص .

ويجيب على من يدعوه بالمعلم الصالح قائلا :

لماذا تدعوني صالحا .. ليس احد صالحا الا واحد هو الله .

وفي مكان آخر يأمر تلاميذه امرا صريحا بالتوحيد نافيا عن نفسه اي شبهة في الالوهية •

لا تدعوا لكم ابا على الارض لان اباكم واحد هو الذي في السموات •

« الاصحاح ٢٣ من انجيل متى »

وفي انجيل لوقا الاصحاح الرابع يخاطب ابليس قائلا :

« اذهب يا شيطان انه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد » •

رافضا السجود للشيطان ولو اعطاه ملك الارض •• ومعلنا سجوده لله وحده •

مرة اخرى نحن امام موحد عظيم وديانة رفيعة •

* * *

ويتأخر تدوين اقوال السيد المسيح وتعاليمه اكثر من سبعين سنة وينشب الخلاف والانقسام حول ما ورد في الاناجيل عن الاب والابن والروح القدس وحول ما كتب بولس الرسول عن المسيح بانه « ربنا ومخلصنا » فتظهر مدرسة آريوس الاسكندري لتقول بان المسيح بشر اختاره

الله نبيا واوحى اليه وأيده بمعجزاته •• وانه ليس ربا ولا الها •• ويظهر « نسطور » في سورية ليقول بان للمسيح طبيعة الهية •• وان الله حال نبيه •• وتتفرع المذاهب والكنائس والمجامع وتتعدد الآراء •• هل المسيح هو الكلمة او هو الابن •• وعن من صدر الروح القدس عن الاب ام عن الابن •• فتقرر الكنيسة الشرقية بان الروح القدس صدر عن الاب وحده وتقرر الكنيسة الغربية بانه صدر عن الاب والابن معا •

ويتفق الكل على وحدانية الله رغم قولهم بثالوث الاقانيم الاب والابن والروح القدس •• فهم يعتبرونهم ثلاثة في واحد •

* * *

والنظرة المتعجلة بعد هذا العرض السريع المسلسل لتاريخ الديانات قد تخرج بنا من التشابه الواضح بين الديانات الهمجية والديانات السماوية الى ان الدين كله جاء من الخرافة وان هذا التسلسل التاريخي حجة عليه بانه اساطير وانه اولى بالعاقل ان يرفضه جملة وتفصيلا •

وهي نتيجة خاطئة •• ومن يقول بها اشبه بمن يطالبنا برفض الطب ومنجزاته لمجرد انه جاء متسلسلا من فنون الطب البدائي امثال الدق والكي والفصد والحجامة والرقي والتعاويذ التي كان يمارسها الطبيب البدائي •• او يطالبنا برفض الكيمياء لانها جاءت من البحث الخرافي وراء إكسير الحياة وحجر الفلاسفة •• او يطالبنا برفض الفلك لانه جاء من التنجيم والشعوذة •

والواقع ان هذا التشابه والتقارب بين جميع مراحل نشأة الفكر الديني هو حجة للدين وليس حجة عليه •• وهو دليل قاطع على ان فكرة الله مغروسة في الفطرة الانسانية وانها فكرة ملحة تطارد الانسان منذ بدأ يشعر ويفكر •• وان الحاجة الى الدين حاجة ثابتة منذ بدء الخليقة •

وانما جاء وصول الانسان الى حقيقة الله على مراحل ومحطات وعلى جرعات •• وجاء اقترابه من تلك الحقيقة على درجات حسب ما تهيأ له من مواهب الفهم •

وكان طبيعيا الا تتجلى عليه الحقيقة في كمالها الا بعد ان تكتمل قدرته على التجريد وتنمو بصيرته بالقدر الذي يستطيع فيه ان يرى رؤية شاملة •

وكان طبيعيا !لا يستطيع ان يتلقى تلك الحقائق الكلية وحيا الا اصحاب البصائر والانبياء الذين اكتمل وعيهم وتهيؤهم .

ومن هنا تأتي فكرة الاسلام عن الله الواحد الاحد المتعال الذي ليس كمثله شيء لتكون الذروة والخاتمة لذلك التجريد الخالص لله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد .. الاول والآخر والظاهر والباطن .. الذي يدرك الابصار ولا تدركه الابصار .. المتعال على كل ما تتصور من صفات .. عالم الغيب والشهادة .. الذي بيده مقاليد كل شيء .. الاحد .. الصمد .. القيوم .. وتجمع الاسماء الحسنى التسعة والتسعون التي نزلت في القرآن غاية ما وصلت اليه المعارف الالهية من تجريد .

* * *

ولذلك نقرأ في تاريخ الاديان بين الشعوب البدائية تلك الحكاية الطويلة لتطور الفكر الديني من طفولة العقل البشري حينما كان العقل طفلا لا يستطيع ان يؤمن الا بشيء مادي متجسد يمسكه بيديه الى ان بلغ غاية

نضجة فاصبح يؤمن بالمطلق والمجرد •• بينما نقرأ عن انبياء نزلوا برسالات سماوية كانوا يمثلون استثناء دائما من هذه القاعدة •• من نوح الى ابراهيم الى اسحاق ويعقوب واسماعيل ويونس وهود وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلامُ •• كان النبي يأتي ومعه حقيقة واحدة لا تتغير ولا تتطور ولا تتبدل •• ان الله واحد لا اله الا هو •

كان كل نبي يأتي بتمام التوحيد •

كان الامر هنا مختلفا •• لاننا لم نكن امام رجل عادي يجتهد فيخطىء ويصيب •• وانما كنا امام رجل مؤيد بوحي وملهم من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا ينطق عن الهوى •• وانما كل ما ينطق به هو مراد الله وبعض علمه الذي يلقيه الى الناس •• ولهذا ظلت الديانات السماوية جسما واحدا وكلمة واحدة وعقيدة واحدة •• وهي عندنا جميعا اسمها الاسلام •• مسيحية كانت او يهودية •

والقرآن وان كان قد جاء بالذروة في المعارف الالهية الا انه قد جاء بالتوحيد ذاته الذي جاء به نوح وابراهيم وموسى وعيسى وبالعقيدة ذاتها والكلمة ذاتها •• لا اله

الا الله ..

يقول عيسى .. ما جئت لانقض الناموس بل لاكمله .
فلا تبدل ولا تطور فيما جاء به انبياء السماء .

وانما كان للاديان تاريخ وتطور عند الانسان العادي الذي كافح بعقله وقطع الطريق الى الله اجتهادا .. معتمدا على مواهبه الذاتية التي تخطىء وتصيب .

ولذلك نرى مصلحا دينيا عظيما مثل اخناتون يخطىء في تصوره لله رغم عبقريته الفذة فيقول في ختام نشيده مخاطبا الله :

انك في قلبي .
وليس هناك من يعرفك .
غير ابنك الذي ولد من صلبك .
ملك مصر العليا والسفلى .
وسيد الارضين اخناتون .

فهو قد وقع في الخطأ الشائع بانه ابن الله الذي من صلبه .. رغم بصيرته الشفافة ووجدانه المحلق .

ونرى مصلحا دينيا عظيما آخر مثل بوذا يتصور الله وجودا مطلقا لا ذات له ..

وهذا شأن العقل دائما حينما يتخذه الانسان دليله .

ان غاية ما يقدمه في طريق البحث عن الله ..
محاولات ..

وقد تركت لنا تلك المحاولات تاريخا وحكاية طويلة لنشأة الفكر الديني هي ما رويناه .

اما انبياء السماء فقد اخذوا معارفهم من نبع آخر لا يخطىء وجاؤوا بعلمهم وحيا .. ولهذا قدموا الينا الحقيقة الدينية خالصة مكتملة .. واتفقوا جميعا رغم تباعد عصورهم .. وكانت كلمتهم .. انه لا اله الا الله دائما وابدا وازلا ومطلقا .. وانه لا تبديل ولا تغيير لهذا الامر .



ورغم ما عرضنا من فلسفات وجدل ونظريات تظل قضية الدين قضية احساس بالدرجة الاولى .. قضية « وعي كوني » كما يقول كاتبنا عباس العقاد .. قضية رؤية شمولية ونظرة شمولية تصدم العقل فيؤمن ويشعر بالحقيقة المهيمنة حوله وفوقه وتحته وعن يمينه وعن شماله .. فهو يرى الله في نظام الكون وجماله .. وفي انسجام نفسه وجمالها وفي الشعور بالقداسة والروعة

الذي يلم بــه كلما سجى عليه الليــل وبرقت النجوم في علياً‌ئها •

وهو شعور يجعلنا في علاقة منسجمة مع الدنيا بينما يمزقنا الالحاد ويبعثرنا اشلاء ويبتر ما بيننا وبين الدنيا من وشائج •• بل ويمزق نفسنا ذاتهـــا الى نقائض تصارع بعضها بعضا بدون جدوى •

ومن ادلة صدق الدين هــذا الاضطراب والقلق الذي يعانيه الملحد وما يعتريه من انقباض وعزلــة وسوداويــة وتمزق بعكس اطمئنان المؤمن وانسيابه مع الحيـــاة في انسجام ومحبة وثقة بالمستقبل •

ولهذا السبب عينه •• ولان الشعــور الديني شعور وجداني قبل ان يكون عقليا نرى مقدم الانبياء يأتي سابقا في التاريخ على مقدم الفلاسفة الباحثين في الله •

لان الانبياء هم اهل البصيرة •

والفلاسفة هم اهل الفكر••

ودور الفكر يأتي دائما في المحل الثاني في قضية الدين•

ومع ذلك ولو كنا من اهل الفكر لا من اهل البصيرة وآثرنا ان نناقش قضية الله بالعقل •• فسوف نجد تراثا من الفكر رافق الانسان منذ بدأ يفكر وآلافا من الكتب

ومئات من الفلسفات والنظريات وجيشا من المفكرين ..
لا هم لهم ولا شاغل سوى قضية الله وما وراء الطبيعة .

ولا يمكن ان يدور كل هذا الكلام على وهم او ان يكون لغوا فارغا يبحث في لا شيء .

ولا يمكن ان يجمع الالوف من اهل الدين والفكر على الانشغال بمسألة واحدة عبر عصور متباعدة ثم يكون اجماعهم ملفقا مزورا .

بل الحقيقة الالهية مغروسة في الانسان غرسا منذ مولده .

والضمير بما فيه من خير وحق وجمال وبما فيه من مقاييس مطلقة تتخذ منها معيارا للحكم على الاشياء .. هو احد الشهود العدول على ما اودعه الله في الفطرة مما لا يمكن تفسيره بالمادة او الجزيئات او الذرات .

والذين يقولون بان الضمير ما هو الا تراكم عادات الماضي وأعرافه وتقاليده الاجتماعية عليهم ان يفسروا لنا . كيف استطاع اصحاب الضمير الفذ وارباب البصائر ان يغيروا المستقبل ويقدموا للانسانية رؤيا تتقدم عصرها بمئات السنين .

كيف استخرجوا من هذا الضمير الذي يقول المفكرون

الماديون انه ارشيف الماضي وجثته المحنطة كل هذا النور وهذه الرؤى المستقبلية .

ولا تفسير الا أننا امام ظاهرة متعالية مصدرها مــن المتعال في الابــد .. وليس مــن تراكم خزعبلات الماضي وتقاليده .

اننا امام الله ..

امام حقيقة الحقائق .

والتماس البراهين على وجــود تلك الحقيقة فضول لا مبرر لهفهي بذاتها البرهان الوحيد على أحقية اي شيء.


الله عند اهل العلم والفكر

كان الله هو الشاغل الاول عند الذيـن اثبتوه وعند الذين انكروه وعند الذين شكوا في وجوده .. وكـان موضوع بحث الفلاسفة دائما بلا استثناء سواء ارادوا ان يستدلوا على الرفض او علـى الايمان ولم يختلف حـال الفيلسوف عن حال البدائي الا في الوسائل .

كان الفيلسوف يتلمس الطريـق بعقلـه . والبدائي يتلمس الطريق بوجدانه .. ولكن الله كان مطلب الاثنين على الدوام .

كان سقراط يمشي في اسواق اثينا يجادل الناس على طريقته في معنى الفضيلة والعدل والجمـال والخير موافقا محدثه فيما يذهب اليه في البداية ليستدرجه بعـد ذلك حتى يكتشف خطأه بنفسه ويصل الى الحقيقة .

وكان سقراط يدعو الى الاعتقاد بخلود الروح وبانها لا تفنى بفناء الجسد .

وجاء افلاطون ليدعو الى نظريته المعروفة بنظرية « المثل » .

ويؤمن افلاطون في هذه النظرية بعقل كل ازلي ابدي دائم هو عقل الله تستقر فيه الصور الاصلية لكل المخلوقات (المثل) .. وتقوم الملائكة او انصاف الارباب بتنفيذ هذه الصور وتخليقها في الواقع بتلبيسها بقوالب مادية تحاكيها .. ونظرا لنقص الملائكة تأتي هذه المخلوقات ناقصة كما نراها في عالمنا ويتفضل الله بكرمه ولطفه فيمنح هذه المخلوقات الناقصة زمنا تعيش فيه وهذا الزمن هو الآخر محاكاة للابد الالهي .. محاكاة ناقصة تلائم تلك المخلوقات الناقصة ولكن عقل الانسان عن طريق صلته بعقل الله يستطيع ان يكتشف الاصول الكاملة المجردة لتلك المخلوقات الدنيوية كما هي في عقل الله ويستطيع ان يعرف المثال الكامل لكل شيء كما يجب ان يكون .

وبقدر تلك الصلة بين الانسان والله يكون مصير الانسان بعد الموت خلودا في عالم المثل في سعادة ابدية مع العقل الكلي .. او هبوطا الى الدرك الاسفل حيث يتناسخ في الحيوانات ويعود الى الارض في صور منحطة اذا اسلم نفسه للشهوات وابتعد عن تأمل ذات الله بما

فيها من مثل عليا •

اما ارسطو فيؤمن باله ابدي ازلي سرمدي واحد لا يقبل التعدد جوهر فرد لا يقبل التركيب ولا التجزئة وقد وصف هذا الاله الواحد بانه المحرك الاول للوجود الذي دفع بالوجود الى حركة الابتـــداء ومنـــذ تلك اللحظـــة والوجود في حركة دائبة •

والله عند ارسطو لا يفكر في الوجود الذي خلقه لانه اتفه من ان يفكر فيه •

ولا يفكر الله الا في ذاته لانها اكمل الموجودات •

ولا يسعى الله الى خلقه بالعناية •• وانما الخلق هم الذين يسعون اليه •

وكل حركة الوجود عبارة عن هذا السعي نحو الله •

انها حركة الوجود الناقص نحو الوجود الكامل •

لقد بث الله في مخلوقاته مـــن العقل والشعور مـــا جعلها في شوق دائم اليه•• وفي حركة دائبة تلقائية نحوه••

اما ديكارت فيبدأ من الشك في كل شيء لينتهي الى اليقين بوجوده هو نفسه •• فما دام هو يشك فمعنى ذلك ان له ذاتا تشك وان هذه الذات موجودة يقينا •

انا افكر فانا اذن موجود •

ومن خلال ايمانه بوجود ذاته يصل الى الأيمان بوجود الله .. فلا يمكن ان تستقر في الاذهـان فكرة الكائن الكامل الا اذا كان لهذا الكائن الكامل اصل موجود .

والفيلسوف الالماني « عمانويل كانت » يؤمن بوجود الله ولكنه لا يستدل عليه بالبراهين العقليـة فالعقل في نظره قاصر عن ادراك الله لانه بطبيعة تكوينه لا يدرك الا الحدود والعلاقات والكميات والكيفيات ومجال عمله هي المسائل الجزئية والحقائق الجزئيـة اما الحقيقة الكليـة ومسألة الجوهر والكنة والماهية فهي امور فوق مستوى قدراته .

وانما دليل الفيلسوف على وجـود الله يأتيه مـن ضميره .. من رغبته الباطنـة في تحري الحـق والعدل والكمال والخير .

وكما ان الظمأ الى الماء يدل على وجود الماء .

فالظمأ الى العدل يدل على وجود العادل .

والظمأ الى الكمال يدل على وجود الكامل وهو الله ولان العدل لا يتحقق ابدا في الدنيا فلا بد ان تكون هناك حياة اخرى يلقى فيهـا كـل انسان جزاءه الحق ويوضع موضعه العادل .

اما برجسون فيتصور القوة الالهية باطنة في الكــون داخلة فيه وليست مستقلة عنه متعاليــة عليــه •• وهو يسميها في فلسفته القوة الدافعة الخلاقة •

ويتصور هذه القوة الدافعـــة الباطنة « ذاتا الهية » تتجلى على اكملها في ابداع الفنان وفكر المفكر •

وخلود النفس عنــد برجسون امر محتمل لا يرفضه العقل •

ولا يتصور دارون •• ان نظريتــه عن التطور تنفي وجود الخالق وانما يقول انهامجرد تفسير لتعدد الانواع•• وانها ترد الانواع كلها الى اصل واحد هو بذرة الحيــاة التي خلقها الخالــق •• فهو لا يستغني في النهــاية عن الاعتقاد في خالق •

والعلم الحديث يصل الى الله من خلال الميكرسكوب والمبضع والتلسكوب وتأمل قوانين الذرة والفلك ••

فيقول عـــالم فلكي مثــل سير جيمس جينز •• ان القوانين الرياضية والمعادلات التــي يتحرك الكون علــى وفاقها وتنتظم المادة وتتحرك الذرات •• استخرجناها من عقولنا بالحساب والفكر والتأمل •• فلما مددنا النظر من خلال التلسكوبات والمناظير والمراقب الفلكية وجدنا ابعد

الاجرام السماوية مما لم نكن نرى او نعلم ·· وجدناه سائرا وفق هذه القوانين ··

وانه لامر بديهي ان تتصور ان هذه القوانين في عقل كلي شامل مهيمن ·· وان هذا العقل الكلي الشامل اودعها عقلنا كما اودعها في الكون ليسير على وفاقها ·· وان الكون كله مشروع متقن من تصميم مهندس ومبدع عظيم هو الذي وضع له الفكرة ووضع القوانين ·

كما نرى عالما عظيما في الرياضيات مثل أينشتين يقول بوجود الله ·· ويرى في النظام المحكم والانضباط الشامل اثر قوة مهيمنة منظمة لكل شيء ·

ونرى علماء لا يكتفون بالايمان وانما يزاولون الصلاة مثل سير اوليفر لودج مخترع صمام الراديو ·

والذي يذهب الى ٣٣ ميدان بلجراف مارلبورن — لندن في المبنى الخامس في الجمعية الروحية هناك يجد قاعة خاصة باسم سير اوليفر لودج افردت للصلوات والتأمل ·

والدكتور الكسيس كارل (جائزة نوبل سنة ١٩١٢) يؤمن بوجود كائنات عاقلة غير منظورة تملأ الفضاء حولنا ويقول بان الصلاة تجعلنا على صلة بتلك العقول الخفية

وتجعلنا محلا لعنايتها والهامها •• وكلما ازدادت صلاتنا حرارة كلما رفعتنا الى حضرة الله ذاتــه حيث يمكنا ان تتلقى العون والمدد منه مباشرة •

والعلم الحديث يعترف بحدوده ويعترف بان هنــاك مناطق من المعرفة محرمة عليه •• فهو بكل ادواته ووسائله لا يستطيــع ان يستكشف الا الجانب الموضوعــي مــن الحقيقة •

كل ما يمكن ان يكــون موضوعا للملاحظة والرصد والحصر والاستقراء والتجربــة يقــع في مجــــال العلم واختصاصه •

ولكن الذات الفردة بحكم كونها ذاتية لا يمكن ان تكون موضوعا للملاحظة •• لا يمكــن ان توضع تحت ميكرسكوب ولا ان تقاس بالشبر ولا ان توزن بالجرام•

وكل ما نستطيع ان نعرفه عنها معلومات غير مباشرة عن اثرها في الآخرين وعلى ما يبدو منها فيظواهر السلوك وغالبا ما تكون هذه الظواهر السلوكية كاذبة ومفتعلة •

والانسان اذا اتخذ من ذاته مادة للتأمل فانهـــا تبرد تحت مبضع التحليل والتشريح وتستحيل الى جثـــة وتفقد ذاتيتها وتصبح شيئا آخر •

واذا استرسل الانسان في استقصاء دوافعه وحوافزه الذاتية فانه سوف يصل الى نقطة تزول فيها الفواصل بين الاسباب والمسببات وتصبح الذات نفسها سببا ومسببا في عين الوقت ٠

واذا كان الانسان يعجز عن معرفة نفسه والاحاطة بها فكيف يدعي معرفة ذوات الآخرين او ينكر ذات الله ٠

ووعي الانسان لنفسه وهي الحقيقة التي نسميها «ذاتا» هي ظاهرة مفردة لا تقبل الجمع ٠٠ فكل منا يتألم وحده ويموت وحده ٠٠ والمكنونات النفسية الخاصة بكل منا لا تقبل الجمع ٠٠ لا يستطيع واحد ان يحب للاخر او يتألم بدلا منه او يموت في محله ٠٠

الصدور مغلقة على عواطفها وآلامها وافراحها ٠

وليس صحيحا ان المجتمع هو حاصل جمع او حاصل طرح هذه المكنونات النفسية لافراده ٠٠ فكل نفس عبارة عن واحد صحيح لا يقبل القسمة ولا يقبل الجمع ولا يقبل الطرح ٠

ويمكن عمل احصائية لدخول الافراد او ممتلكاتهم او مدخراتهم لانها جميعا اشياء موضوعية قابلة للحصر والجمع والاضافة ٠٠ اما مكنوناتهم النفسية فلا تقبل الجمع لانها

حقائق ذاتية كل منها تقوم بذاتها .

وكل منا حقيقة لا نهائية في ذاته .. مفرد.. متفرد.. لا يتكرر .

احد لا يقبل القسمة ولا الوزن ولا القياس .

نسيج وحدة .

عالم قائم بقوانينه الذاتية .

خلقه الله على صورته يشبهه في الواحدية والاحدية والحياة والعلم والسمع والبصر مع الفارق الهائل في الرتبة بين الخالق والمخلوق .

وانه لامر طبيعي ان تتصور هذه الذات لا تموت بموت الجسد .. ولا نرى في الجسد الا اداتها العابرة وثوبها المؤقت الذي تنتقل به في عالم الزمان والمكان ثم تخلعه عنها اذا بارحت عالم الزمان والمكان .

وكما وقف العلم الحديث معترفا بعجزه وحدوده امام «الذات» فانه ايضا قد خفف الكثير من غلوائه وادعائه العصمة امام حقائق العالم المادي وقوانينه .

لم تعد قوانين الطبيعة اليوم صارمة كما كانت بالامس بعد ان جاء هيزنبرج بنظريته الخاصة « بعدم التحديد » واستحالة اليقين والحسم في رصد حركة الذرات

والجزيئات المادية .

وكيف ان الالكترون يروغ من الملاحظة .. اذا حاول الملاحظ ان يحدد موقعه تغيرت سرعته واذا حاول ان يحدد سرعته تغير موقعه لان الشعاع الذي سوف يستخدمه الباحث في رؤيته سوف يقذف بذلك الالكترون بعيدا كل مرة .

وحالة هذا الباحث بالنسبة للالكترون اشبه بحالة الاعمى الذي يمسك بقطعة مكعبة من الثلج محاولا ان يتحسس ابعادها ... فكلما ادرك ابعادها تغيرت كتلتها وكلما حاول معرفة كتلتها تغيرت ابعادها لانها تذوب بمجرد ان يتحسسها فتتغير كل لحظة .

ان لمسته تجعلها في حالة ذوبان مستمر .

ان اداته في المعرفة تزيف عليه نتائج المعرفة .

ومن هنا يدخل عنصر « عدم التحديد » .

القوانين العلمية لا تصدق على وجه الحتم ولكن على وجه التقريب باعتبارها معدلات احصائية لمجموعات كبيرة من الذرات والجزيئات المادية فهي ترصد حركة تلك الذرات في عمومها كجيش متحرك ولكن لا يخلو الامر من عدة جنود يخرجون عن الصف كل مرة .. ولهذا لا

تكرر التجربة الواحدة فتأتـــي بنفس النتيجة ابدا ...
وانما يظل هناك فارق طفيف جدا لا يخضع للقانون .
وبهذه الروح المتواضعة ترك العلم الحديث مقعد الزهو القديم وعرش التبجح والمكابرة وتنازل عن اليقين مكتفيا بالاحتمال والترجيح والامكان .. وبذلـك فتح البـاب للكلمة التي يقولها الدين وافسح صدره لتأملات الصوفي وتعاليم النبي .
ولم تعـد مشاعر الصوفي والهاماته مسألة تقابـــل بالسخرية والاشاحة باليد .. الا مـن الجهال ومحدودي الافق .
وفتح العلم ذراعيه للدين بعد قطيعة مفتعلة استمرت سنين .


الله عند الذين انكروه

الذين انكروا الله كانت لهم في كل زمان حجة .

قالوا ان الدين وهم وان الله فكرة اخترعها الانسان ليلتمس العزاء في الدنيا وليعلل نفسه باحلام الخلود بعد الموت وبالجنة وبالحور وبالقصور .. ونسوا ان هناك اديانا تبشر بالفناء ولا تقول بجنة او نار .. ولا تعتقد في روح .. وهي اكثر انتشارا واكثر اتباعا من الاديان السماوية مثل الديانة البوذية .

وقالوا بان الدين افيون يوزعه الاغنياء على الفقراء وصكوك بجنة وهمية بعد الموت في مقابل سرقتهم لحياة الناس .. وهو بذلك سلاح لطبقة على طبقة .. ونسوا ان فكرة الله بدأت في المجتمع الهمجي البدائي والمشاعي قبل ان يظهر الاقطاع والرأسمالية بما فيهما من صراعات وطبقات.

ولقد خرجت الرأسمالية مهزومة بعد التحول الاجتماعي وانتصار الفكر المادي ، وظل الدين ثابتا في معاقله يؤدي

دوره رغم المجتمع الجديد الذي بلا طبقات •

واعتمد الفكر المادي في رفضه للدين على انه غيبيات وان العقل العلمي لا يصح ان يؤمن بغيبيات •• ومع ذلك تورط الفكر المادي ذاته في اقـامة فلسفته على الغيبيات والفروض •• فقال بقدم المادة وانها ازلية لم يخلقها خالق وانها موجودة منذ اللانهاية من الزمان وانهـا تطورت في سلسلة من المراحل •• في البدء ، كانت المادة ثم تطورت الى الحياة ثم تطورت الحياة الى ذروتها «الأنسان العاقل» وحدث كل ذلك تلقائيا بالقوانين الجدلية الباطنة في المادة دونما عوامل خارجية من وراء المادة •

فبدؤوا من افتراض خاطيء وهو أزلية المادة اعتبارا من ان تسلسل الزمن في الماضي الى آجال سحيقة يمكن ان يوصلنا الى الازل او اللانهاية •• وهو خطأ •• فالزمن كمية محدودة ومهما انضافت كميات محدودة الى كميات محدودة فالنتيجة لا تكون الا كمية محدودة • ولا نصل مهما استرسلنا في الجمـع والاضافة الى اللانهايـة •• وبالتالي الى الازل •• فالمادة ليست قديمة ولا أزلية •

والكلام على انه في مبدأ الكون كانت المادة ولا شيء غير المادة وان المادة سابقة في الظهور اطلاقا •• هو فرض

آخر وكلام عن غيب فلم يكن احد من الفلاسفة الماديين موجودا في تلك اللحظة التي هي مبدأ الكون •• وانما هي شطحة غيبية من تلك الشطحات التي يعيبونها علينا •

ثم الكلام عن تطور المادة تلقائيا بالقوانين الجدلية الباطنة فيها هو تعسف آخر فلم يحاول واحد منهم ان يسأل نفسه السؤال المنطقي والبسيط •• من الذي وضع تلك القوانين في المادة •• وكيف يوجد نظام بلا منظم •• وكيف تولد سيمفونية بدون مؤلف يضع لها النوتة ويقود لها الاوركسترا •• ونسوا ان اسقاطهم لقانون السببية من حلقة الحوادث وتصورهم لخلق بلا خالق هو اسقاط للعلم كله وخروج على الفكر العلمي في بداهاته الاولى •

اما كلامهم عن المادة باعتبارها الحقيقة الوحيدة الجوهرية واغفالهم الذات المدركة واصالتها واعتبارهم انها نتاج ثانوي لتطور المادة فهو افتراض آخر وتعسف غير علمي ومحاولة مخلة لتبسيط كل شيء في كلمة واحدة هي المادة •

هو اذن بنيان واه من الفروض والاحتمالات والشطح والتخمين والتبسيط الساذج لحقائق هي بطبيعتها مركبة ومتداخلة ومعقدة ومؤلفة من مئات الاسباب والعوامل ••

وبالرغم من ان الفكر المادي يضع يافطة العلم شعارا لكل ما يقول الا انه لا يراعي بداهات هذا العلم واولياته •

ونسمع من يقول ان الدين هو حسن السير والسلوك ومكارم الاخلاق •• وان هذه الاشياء يهتدي اليها الانسان الان بعقله وبالوازع الاجتماعي وبدون حاجة الى دين •• ويخطيء صاحب هذه الدعوى فهمه للدين •• فالدين ليس هو الاخلاق •• وانما هو مرتبة اعلى من الاخلاق •

فاذا كانت الاخـــلاق وظيفتها تحقيـــق الانتماء الى الجماعة الانسانية على احسن صورة •

فالدين وظيفته اشمل •• وهي تحقيـــق الانتماء الى الكون والوجود والله •• على افضل وجه •

الانسان عن طريق الدين يكتشف انتسابه الحقيقـــي والاصيل باعتباره صادرا عن الله والى الله يعود •• فهو مخلوق لله ومسؤول امامه •• وكل ما يملـــك فمن الله وبفضله•• وواجبه لا يكون الا نحو الله وعمله لا يقصد به الا وجه الله •

اما الانسان الحسن السير والسلوك بالمعنى الاجتماعي والاخلاقي فانه لا يشعر الا بانتسابه المحدود الى عشيرته الانسانية •• ودستوره هو مجموعة لوائح الاخلاق التي

تجعل هذه العلاقة علـى افضل ما تكـون •• ولكنها لا تتجاوز به تلك العشيرة المحدودة مـن الاهل والاصحاب لتخرج به الى ساحة الوجود ككل •

ونأتي الى فرويد فنجد انه ينطلق من نظريته في تعليل كل شيء بالحافز الجنسي ليفسر لنا الديـن بانه نوع من التسامي بالغريزة الجنسية •• فحب الطفل الجنسي لامـه وغيرته من ابيه وكراهيته الدفينة له (عقدة اوديب) تتخذ شكلا ظاهريا من التكفير اللاشعوري عن هذه الكراهيـة بحب مبالغ فيه للاب ثم عبادة للاب ثم عمل تمثـال للاب وعبادته (الاصنام) •• ثم في النهاية الاتجاه بالعاطفـة والعبادة نحو اب سماوي مجرد •

وينسى فرويد ان فكـرة الله بدأت في المجتمعات البدائية الهمجية المشاعية وقبل ظهـور عوامـل الكبح والكبت والتحريم الجنسي الذي يجعل الام محرمة على الابن والاب محرما على البنت ويذكر لنا التاريخ حتى في العصور المتقدمة كيف كان الفراعنة يتزوجون بناتهم وكيف كانوا يتزوجون اخواتهم •• فلا معنى لعقدة اوديب فـي مثل تلك المجتمعات •

وحتى لو صدقنا فرويد فانه ينبغي بناء على كلامـه

ان يعبد الرجل ابا سماويا والمرأة اما سماوية (بناء على عقدة الكترا عند البنت) وهو تقسيم غير وارد .

***

ونجيء الى عقدة العقد في انكار المنكرين وهي قضية الشر وهي عندهم حجة الحجج وعمدة البراهين .

يقولون لك كيف تكون الدنيا من صنع خالق كامل حكيم عليم رحيم كريم .. وهي بهذا الحال من الشر والنقص ملطخة بالدم نابا ومخلبا .

والكلام عن الشر قديم قدم التاريخ .. وهناك اكثر من رد :

فأولا : لا يمكن الحكم على رواية بحضور فصل واحد من فصولها .. والابن يبكي حينما يأخذه ابوه ليجري له جراحة ويعتبر ما يفعله به غاية الشر .. فاذا امتد به العمر اياما .. رأى ان هذا الشر العارض كان وراءه خير باق يستحق التحمل من اجله .. وبالمثل حياتنا لم تنته بعد وهي بالموت لن يسدل عليها الستار .. وانما ستكون هناك فصول اخرى .. ولا يمكن الحكم من هذا

الفصل العابر الذي نعيشه على مغزى الرواية كلها .

ثانيا : من الواضح ان بناء شخصية الانسان وخلقه وصلابته وعزمه مرتبط اوثق الارتباط بما يعاني من مشقات .. ولولا المشقة لكان الامر كما يقول المتنبي :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

فلا معنى للصفح بدون الاساءة ولا للرحمة بدون الالم ولا للعدل بدون الظلم .

ومن البلاء والصبر عليه .. ومن الألم .
واحتماله تنمو افضل ما في الانسان من صفات .

وعندنا المثل القريب في لعبة مثل الشطرنج ففي امكان اللاعب ان يسقط ملك الشطرنج بخبطة واحدة من يده متغاضيا عن قواعد اللعب ليتجنب المشقة .. ولكن اين تكون لذة النصر .. ان اللعبة الجميلة سوف تتحول الى شيء مضحك سخيف .

ثالثا : ما يبدو لنا في النظرة الجزئية عيبا ونقصا نراه في النظرة الشاملة وفي المنظور التاريخي نعمة وخيرا .. كما نقترب من لوحة ومن جزء صغير فيها فنلاحظ ما يشبه لطعة قذرة فاذا ابتعدنا رأينا تلك اللطعة مساحة من

الظلال تؤدي وظيفة ضرورية في الجمال الكلي للصورة..
كذلك تبدو الزلازل والبراكين والكوارث الطبيعية في اطارها الشامل ولها وظيفة مفيدة نافعة في اعادة التوازن بين باطن الارض الفوار الملتهب المضطرب وبين قشرتها الصلبة الساكنة .

وتعمل الزلازل الى اعادة الجبال الى اماكنها بعد الانزلاق الذي تنزلقه كل عدد من السنين .. والجبال كما نعلم هي الثقالات والاوتاد التي تثبت القشرة الارضية في اماكنها ولولاها لانفجرت وطارت في الفضاء بفعل باطن الارض الذي يغلي كمرجل ويتمدد دافعا القشرة في كل اتجاه بضغط هائل .

انها كوارث تهلك آلافا في سبيل بقاء الحياة والانسانية وامتداد عمر الدنيا الى أجلها المكتوب في الزمان .

والانسان يموت على اي حال بالزلزال او بغيره .

رابعا : ان الشر كان ضريبة الحرية التي منحها الله للانسان فلا معنى للحرية الممنوحة للانسان دون ان تكون له حرية الخطأ كما تكون له حرية الصواب .

ولهذا رافق الخطأ الحرية في مسيرتها وكان ضريبتها.. وأصبح تاريخ الانسان هو تاريخ المحاولة والخطأ .

ونتج من الخطأ الشر •

ولم يكن هناك الا بديل واحد هو ان يولد الانسان مجبرا على اختيار واحد هو الخير •• ومعنى ذلـــك ان يخسر حريته وهو اسوأ •

خامسا : ان الشر والخير هما وجهان لعملة واحـدة • فالفيضان هو خير من وجه وشر من وجه اخر والحروب هي دمار من وجه وهي حياة من وجه • فالحروب هـــي التناقضات الهائلة التي ادت الى التراكيب الانسانية التي وحـــدت البشرية في جماعات كبيرة ووصلت القارات ببعضها •• فهي التي كتلت الناس في أسر ثم عشائر ثـم قبائل ثم امم ثم قوميات وفي النهاية القت بهم على مائدة عالمية واحدة في مجلس الامن يجلس عليها الكل •• ومن الانفاق الحربي الباذخ والبحوث المركزة في اوقات الحرب خرج للناس البنسلين ونقل الدم ونقل الاعضاء والطاقة الذرية والصواريخ والنفاثات والغواصات وصناعة الصلب والبارود وأجهزة الرادار •

سادسا : ان الشر لا وجود له بالاصالة بل هو مجرد بطلان الخير وهو بطلان رافق محدوديةالانسان ومحدودية الكائن الحي •• وما كان يمكن ان يخلق الكائن المحدود

بلا حدود وبلا عيوب .

والبديل الوحيد .. ان يخلق الانسان كاملا بـــلا نقص .. اي يخلق الها من البداية وهي استحالة .. ان تتعدد الالهة .. وأي حكمة في تعددها ؟.. ما دام الكامل الواحد في ذاته يغني عن غيره .. وكيف يكون الالـــه الكامل مخلوقا .. هي استحالة منطقية اخرى ان يكون كاملا ومعتمدا في وجوده على غيره .

وطلبنا من الله ان يحقق لنا هذه المستحيلات المنطقية اشبه بطلبنا منه ان يجعل مجموع الواحد والثلاثة صفرا بدلا من اربعة .. ومعنى ذلك اننا نتصور الله صانـــع هراء .. وكل هذا من اجل ان يجنبنا المشقة ويهيىء لنا المتعة .

ومتى كانت المتعة قيمة تحسب في عداد القيم الرفيعة.

ولنا ان نسأل بعد ذلك هؤلاء الذين يريدونها جنة.. هل يستحقون ان تكون لهم جنة .. وماذا فعلوا من اجل ذلك ؟

والكلام في قضية الشر كثير .

والقضية ازلية .

وكان لا بد من الشر لتكون للفضيلة البشرية وظيفة

تؤديها في مقاومته .

ولكن بعض المنكرين تعجلوا الحكم وقفزوا من ظاهرة الشر الى نتيجة متعجلة باتهام الخالق .. وتصوروا للدنيا خالقا محدود القدرة قليل الحيلة مقيدا بالظروف والملابسات التي يخلقها .. الها لا يختلف كثيرا عن شيخ قبيلة محدود المواهب ومن هؤلاء جون ستيوارت ميل الانجليزي .

وآخرون قالوا بأن الله ينبثق من المادة كما انبثقت الحياة نباتا وحيوانا وانسانا على مراحل كذلك تأتي مرحلة ينبثق فيها الكائن الكامل الذي هو الله ليكـــون ذروة التطور واكمل طبعة من طبعاته .

ولم يقل لنا هؤلاء ماذا ستكون وظيفة هذا الكائن الكامل الذي يأتي بعد اوانه وبعد ان تنتهي الحاجة اليه.. هذا اذا صدقنا بقضية الانبثاق وهي استحالة منطقية بأن يخرج اللامحدود من المحدود .

اما الفلاسفة الوضعيون امثال اوجست كونت فآثروا الانصراف عن القضية كلها واطراحها واهمالها انطلاقا من عجز العقل عن ادراك الحقائق النهائية ويأسا من بلوغ ما وراء الطبيعة او كشف كنه الغيب او الله .. ونصحـوا بالاكتفاء بما يعطيه العلم من تقدم ووسائل تكنولوجيـة

لاسعاد الانسان وحسب الانسان ان يعكف على هـــذا الجانب الممكن يتقن علومه واختراعاته ويطورها لصالـح حياته ولا يضيع الوقت في تأمل الله واسراره ... ناسين بذلك ان ما لا يدرك بالعقل والمنطق الجدلي فهناك وسائل اخرى لادراكه .. وان الانسان لم يوهب المنطق وحده ولكنه وهب البصيرة الكاشفة والوجدان الملهم .

والصوفي الذي تتفتح بصيرته فيدرك مـن الحقيقة الالهية ما يجعله يغيب عن عالم الظواهر ويغيب عن نفسه ويستغني بقربه من الله عن كل شيء ... مثل هذا الادراك الرفيع من ذلك الصوفي لا يمكن انكاره باشاحة اليد لمجرد ان الملحد عاطل عنه فليس من حق الاصم ان ينكـــر الاصوات ، ولا الاعمى ان ينكر نور الشمس لمجرد انه لا يراه .

وفي هذا العصر الذي اكتشفنا فيه من صنوف الاشعاع والامواج مما تضج به السماء حولنا مما كنا لا ندرك او نحس له اثرا .. في مثل هذا العصر يصبح انكار الغيب والمجهول سذاجة عقلية .

فاذا اضفنا الى ذلك ما اكتشفنا ، في علم النفس من عجائب اتصال الافكار والجلاء البصري واستشعار الخطر

قبل وقوعه وعجائب ما يحدث من اتصال فكـــــر المنوم بالوسيط في التنويم المغنطيسي •• ومن استدلال الطيور المهاجرة على طريقها بدون حواس معروفة •

كل هذا كشف لنا من اسرار العقل ومجهولاته ما أطل بنا على ظلمة الغيب والاسرار الغيبية فأضاءها وأحياهـــــا لتعود موضوعا للايمان والبحث من جديد •

فهرست

	صفحة
الله في الاسلام	٥
الله في العبادات منذ فجر التاريخ	٥٩
الله عند اهل العلم والفكر	٨٩
الله عند الذين انكروه	٠٣

كتب صدرت للمؤلف

الله والانسان	دراسة
اكل عيش	مجموعة قصص قصيرة
عنبر ٧	مجموعة قصص قصيرة
شلة الانس	مجموعة قصص قصيرة
رائحة الدم	مجموعة قصص قصيرة
المستحيل	رواية
الافيون	رواية
العنكبوت	رواية
الخروج من التابوت	رواية
رجل تحت الصفر	رواية
في الحب والحياة	مقالات

الاحلام	دراسة
اينشتين والنسبية	دراسة
لغز الحياة	دراسة
لغز الموت	دراسة
الزلزال	مسرحية
الانسان والظل	مسرحية
عندما	مسرحية
الاسكندر الاكبر	مسرحية
الغابة	رحلات
الصحراء	رحلات
حكايات مسافر	رحلات
يوميات نص الليل	مقالات
اعترافات عشاق	من رسائل القراء
٥٥ مشكلة حب	من رسائل القراء
اعترفوا لي	من رسائل القراء
القرآن	دراسة
رحلتي من الشك الى الايمان	دراسة
الطريق الى الكعبة	دراسة
الله	دراسة

صمم الغلاف الفنان : بهجت عثمان

جميع كتب الدكتور

مصطفى محمود

تطلب من دار العودة
بيروت ـ شارع مار منصور
تلفون : ٢٣٦٤٠٧

هؤلاء هم الكتاب الذين تعتز دار العودة بوقوفهم على ارضها الصغيرة الخضراء :

احمد الشقيري ، ادونيس ، احمد عبد المعطي حجازي ، اكرم ذيري ، الطيب صالح ، امل دنقل ، اميل حبيبي ، بدر شاكر السياب ، توفيق زياد ، ثروت عكاشة ، حنا ابو حنا ، سميح القاسم ، حسن القرشي ، سليمان العيسى ، سيد الحردلو ، صلاح عبد الصبور ، عمر أبو ريشة ، عز الدين اسماعيل، غسان كنفاني ، عبدالوهاب البياتي ، نازك الملائكة ، ناجي علوش ، غالب هلسا ، الهيثم الايوبي ، محمد الفيتوري ، مطاع صفدي ، معين بسيسو ، طلال سلمان ، فؤاد الخ
سميرة عزام ، سعدى يوسف ، محمد عفيفي مطر .

احمد دحبور ، امل الزهاوي ، امل جراح ، بشارة الخو
وليد سيف ، محمد القيسي ، عزالدين المناصرة ، سامي
فوزي كريم ، اسماعيل فهد اسماعيل ، عبد الامير
خليل نعيمي ، توفيق فياض .

الثمن : ٣٠٠ ق. ل.